

الجزء الثالث

تأليف الفيلد مارشال

مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر





الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثالث

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة
٥٠ شارع الزصفي بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

تابــع الفهرس

الفصل الثامن

الفتوحات النورماندية والحملات الصليبية

قوم حياتهم الحرب

لقد وصلنا إلى فترة بالغة الأهمية فى التاريخ العسكرى ... أنها الفترة الرئيسية لمنتصف العصور الوسطى (عام ١٠٠٠ — ١٢٠٠) . فى هذه الحقبة من الزمن كان النورمانديون[١] من أبرز الشعوب فى الفن العسكرى ، وقد وهبتهم فرنسا عام ٩١١ دوقية نورماندى[٢] ليدافعوا عنهم ضد الفايكنج .

لقد كانت القوة الرئيسية لجيش الفايكنج من المشاة بالرغم من ذلك أصبح النورمانديون فرسانا مشهورين ، وعندما غزى الدوق ويليام إنجلترا كانت القوة الرئيسية لجيشه مشكلة من الفرسان النورمانديين .

وقد استخدم النورمانديون أسلوب القتال المتبع فى فرنسا بعد تطويره ، مع تطوير الكثير من الأساليب الأخرى ، ولذلك أصبحوا من أعظم الشعوب فى الفروسية والتحصينات الإستراتيجية .

ويعتبر القرن الحادى عشر والثانى عشر من العصور الذهبية لهم ، فقد قاموا خلال هذه الفترة بفتوحات واسعة ، حتى أصبح كل من جنوب إيطاليا وصقلية والجزر البريطانية وغرب فرنسا تحت الحكم النورماندى .

وقد لعبوا دوراً رئيسياً فى إعادة النشاط لأوروبا ، فكانوا قادة الحركة التى أثبتت بأن أوروبا أستعادت حيويتها ، وكانت ممثلة فى الحملات الصليبية .

---

(١) النورمانديون شعب يرجع أصلهم إلى رجال الشمال (الفايكنج)

(٢) لقد وهبتهم فرنسا هذه المقاطعة على النظام الإقطاعى لإقتناعهم بأن الطريقة المثلى للدفاع عن فرنسا ضد الفايكنج أن يضعوا فى طريقهم فايكنج آخرون . « المعرب »

وقد قال عنهم ويليام (حاكم مالمسبورى) : — «لقد كانوا شعباً تعود الحرب ولا يستطيع أن يعيش بدونها» .

ويعتبر هـذا الجزء من قصتنا مثيراً بالنسبة لى ، لأنه يملؤنى شوقا لأسرتى التى يرجع جذورها إلى نورماندى ، فيوجد فى مدينة فاليس الـكثير من النصب التذكارية لشخصيات من آل مونتجمرى ، ومنهم روبرت مونتجمرى ، ابن شقيقة ويليام الفاتح ، والذى قاتل معه على الجناح الأيمن للجيش فى معركة هاستنجز . والأكثر غرابة أن خصمى روميل أصيب عام ١٩٤٤ فى قرية سانت فـوى مونتجمرى بالقرب من ليزييـه ، وقد أبعدته هـذه الإصابة عن معركة نورماندى ، وكنت فى ذلك الوقت أقود القوات التى تغزو نورماندى .

الشخصية المهيمنة على الحرب

نعود إلى جيوش أوروبا وآسيا خلال السنوات ٤٠٠ — ١٠٠٠ ، فنجد أنها كانت تتشكل من المحاربين الراكبين وعناصر ضعيفة من المشاة ، رديئة التسليح والتجهيز ، وبات واضحاً أنه لابد من مرور عدة قرون لتصبح المشاة مرة أخرى ملكة ميدان القتال ، لأن الشخصية المهيمنة على الحرب كانت تتمثل فى الفارس ، وذلك بعد هزيمة المشاة من حملة الفئوس الأنجلو — سكسون فى معركة هاستنجز فى القرن الحادى عشر ، ولم تستعد المشاة مكانتها إلا بعد ظهور المشاة السويسرية والإنجليزية فى القرن الرابع عشر

وكان النظام الإقطاعى يعتبر الفارس الراكب الجندى المثالى والنموذجى بل والعمود الفقرى للجيش .

وإذا قارنا بين الجيوش فى ظل النظام الإقطاعى والجيوش الصليبية ، لوجدنا فارقاً كبيراً ، فـكان تنظيم الجيوش الصليبية مختلفاً لوجود عدد كبير من المتطوعين فى صفوفها ، وكانت تفتقر للتماسك لإختلاف أجناس الجنود ، ويملؤها الغيرة والمنازعات التى كانت قائمة بين قادة الجيوش الصليبية أنفسهم .

وعلى كل فعند دراستى للمعارك الصليبية التى وقعت من تركيا إلى مصر خلال سوريا وفلسطين ، لم تثر فى نفسى أى حماس لأنها فى الواقع لم تضف إلى التاريخ العسكرى إلا قدراً ضئيلا من التجارب والدروس المستفادة .

مملكة صقلية النورماندية (أنظر اللوحة رقم ١٥)

نعود إلى المغامرين النورمانديين فنجد أن فتوحاتهم وأعمالهم فى منطقة البحر المتوسط لم يكتب لها الحياة طويلا بالرغم من أنها أتسمت بالجرأة والبراعة ، وعلى كل سنجد أن النورمانديين الأوائل الذين توغلوا داخل جنوب أوروبا كانوا من الحجاج . ففى عام ١٠١٦ قامت جماعة منهم تتألف من أربعين رجلا أثناء عودتهم من حج بيت المقدس بالمرور على جنوب إيطاليا ، وكانت مدينة سالرنو محاصرة فى ذلك الوقت بالعرب ، فعلى الفور قاموا بجمع الأسلحة والخيول ومهاجمة العرب واستطاعوا تشتيتهم .

فى هذه الفترة لم يزد نشاط النورمانديين عن أعمال قطاع الطرق وأستخدموا فى ذلك الوقت بعض المرتزقة من اتباعهم ، ولكن فى عام ١٠٤٠ بدأت عائلة هوتيفيل[1] السيطرة عليهم وإصدار التوجيهات المحددة لنشاطهم .

سيطر النورمانديون على جنوب إيطاليا تحت قيادة زعيمهم جسكارد . وفى عام ١٠٥٣ زحف جيش بابوى من روما لطرد النورمانديين من جنوب إيطاليا ، وإلتقى الجيشان عند كفتاتى وهزم الجيش البابوى هزيمة ساحقة ، ولكن لم يستطع النورمانديون إستغلال النصر وفى عام ١٠٥٩ عرض جسكارد فروض الطاعة والولاء للبابا فى مقابل تنصيبه ملكاً على جنوب إيطاليا . وخلال فترة الصراع على التنصيب قام هنرى الرابع عام ١٠٨٤ بالإستيلاء على مقاليد الأمور فى روما وزج بالبابا جريجورى الرابع فى السجن بقلعة سانت أنجلو ، فى ذلك الوقت طلب من جسكارد القيام بتخليصه وطرد الألمان ، وعلى الفور تقدم جسكارد بجيشه نحو روما وطرد الألمان شمالا وأطلق سراح البابا . إلا أن روما عانت فى ذلك الوقت على أيدى النورمانديين وقواتهم الأهوال من مذابح ونهب يفوق الأعمال التى أرتكبها الوندال قبل ذلك .

---

(١) كان تانكرت بارون هوتيفيل عميد العائلة وقد رزق بإثنى عشر ولداً ولم يستطع النهوض بأعبائهم ، فرحل بعضهم (وليام ذو الذراع الحديدى ودروجو وروبرت وروجر) إلى الجنوب بحثاً عن الثروة . وفى عام ١٠٤٦ حصل روبرت المسمى بجسكارد على ثروة طائلة بعملة كمرتزق بعض الوقت وكقاطع طريق البعض الآخر فى جبال كالابريا فى جنوب إيطاليا حيث استوطن هناك وأصبح من ذوى النفوذ والسيطرة على هذه المنطقة . « المعرب »

نعود إلى صقليه فنجد أنه اكتمل فتحها فى ذلك الوقت ، فقد قام روجر الأول عام ١٠٦١ بمحاولة لفتحها وطرد العرب منها ولكنه تعثر فما كان من جسكارد أن قدم له العون ، إلا أنه فى عام ١٠٧٢ وصلوا إلى نقطة التحول عند حصارهم لبالرموو الإستيلاء عليها ، وعلى كل لم تسقط آخر معاقل العرب هناك إلا فى عام ١٠٩١ .

إذا عدنا إلى روجر الأول فنجد أنه كان يحكم ولاية إقطاعية فى صقلية وله جيش إقطاعى قوى مكون من جنود من الإغريق والعرب والنورمانديين ومحصنة بقلاع نورماندية لحماية المدن الهامة بها ، علاوة على إعتماده على أسطوله الضخم المكون من السفن الشراعية الكبيرة ، وعلى قوة جورج حاكم أنطاكية[1] .

وفى عام ١١٣٠ اعترف البابا بروجر الثانى ملكاً على صقيلة ومالطة وجنوب إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة صقيلة النورماندية من الممالك الأوروبية التى تتمتع بحكم عادل وثقافة واسعة نتيجة للخليط الذى تكون من نشاط أهل الشمال مع خبرة أهل البحر المتوسط .

ويليام الفاتح

يعتبر أكبر غزو للنورمانديين هو غزوهم لإنجلترا فى عام ١٠٦٦ والذى أعتبر عام الغزو والنصر لهم عند هاستنجز وقدمر فى ذلك الوقت ٣١ عاماً على حكم ويليام لدوقيه نورماندى . وقد أكتسب هذا القائد شهرة واسعة لأنه كان تكتيكى ممتاز بل وأكثر من ذلك كداهية فى الإستراتيجية وحرب الخداع وقائد جرىء بعيد النظر صبورا ذو مقدرة فائقة على السيطرة على رجاله ، وكان صارما فى تنفيذ سياسته ، وقد كتب عنه فيما بعد فى تاريخ الأنجلوسكسون : —

« دعى الملك لبناء القلاع ، وكان شديد الصرامة مع قومه ، فارتفعت شكوى الأغنياء وتذمر الفقراء . ولكنه كان قويا بحيث لم يعرهم أى إهتمام » .

وقد كتب عنه من ناحية أخرى : « لقد حقق ويليام نظاماً وإستقراراً فى الأمن

(١) تقع أنطاكية فى شمال سوريا ، ويعتبر جورج من أبرع ما أنجبته صقلية من قادة البحر فى العصور الوسطى . « المعرب »



اللوحة رقم (١٥)
فتوحات النورمانديين في أوروبا

لايمكن أن ينسى ، فأى إنسان يستطيع التجول فى مملكته وجيوبه مملوءة بالذهب دون أن يصاب بأذى ، ولايجرأ أى فرد فى هذه المملكة أن يقتل زميله » .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الوضع المشبع بالسلام لايتحقق إلا بعد سنوات عديدة من الحرب والتمرد والصراع . وفى عام ١٠٤٧ تمكن ويليام من إخماد الثورة البارونية عند فال دى ديون بالقرب من كان ، كما دار صراع دام بينه وبين جوفرى[1] حول الإستيلاء على « ماين » ، وفى عام ١٠٦٤ حسم ويليام القضية لصالح نورماندى بالإستيلاء على « لى مانس » .

وفى عام ١٠٦٦ بعد أن اكتسب ويليام خبرة طويلة من هذه الصراعات ، أصبح حاكما محنكاً وقائداً ناجحاً وعلى دراية بكل أشكال وأسلوب الحرب فى عصره ، ولذلك لم تكن حملته على إنجلترا مجرد غارة حماسية للاثارة ، بل كانت زحفاً للتوسع والفتح ، تم له التجهيز سلفاً بزمن طويل . وقدواتته الفرصة بعد موت إدوارد ملك إنجلترا فى الخامس من يناير عام ١٠٦٦ بالمطالبة بعرش إنجلترا من الناحية النظرية[2] ، فقد وجد نفسه أحق من هارولد « أمير ويسكس » والذى يعتبر أقوى شخصية فى إنجلترا ، ولكن الوتان[3] فى ٦ يناير أختار هارولد ملكاً على إنجلترا وتم تتويجه ، ولكن هارولد كان يفتقر إلى صفات الزعامه الوطنية .

عندما علم ويليام بذلك قرر غزو إنجلترا ، ولكنه قبل عبور بحر المانش بثمانية شهور أخذ يستعدمن الناحية العسكرية مع إطلاق دعاية واسعة له ولجيشه ، وقد حصل فى ذلك الوقت على مصدر ثمين للقوة المعنوية متمثلة فى البركة التى منحها له البابا ألكسندر الثانى والترحيب والتشجيع من كل من الإمبراطور الألمانى وملك الدانمرك .

غزو انجلترا

وعلى كل لم يكن التهديد النورماندى هو التهديد الوحيد الذى هدد هارولد فى هذا

---

(١) كان جوفرى يسمى بالمطرقة ويشغل منصب كونت أنجو .

(٢) لوجود روابط النسب والعهود السرية بينهما .

(٣) المجلس الوطنى الإنجليزى .

« المعرب »

العام ، بل كان هناك خطر آخر فى الشمال ... فقد تحالف شقيق هارولد ويدعى توسيتج مع ملك النرويج المسمى هارولدهار درادا[١] . وأصبح من المتوقع أن تغزو النرويج إنجلترا . وفى شهر مايو أغار توسيتج على الهمبر . ولكن هارولد كان مقتنعاً بأن تهديد ويليام هو أكثر التهديدين خطورة ، لذلك حشد قوته البحرية فى بحر المانش وأخذت تقوم بدوريات طول شهر يونيه ويوليه وأغسطس مابين دوفر وجزيرة ويت . فى ذلك الوقت أصدر هارولد أوامره إلى أمراء ونبلاء وأيرلات[٢] المقاطعات بالإستعداد وتجهيز قوات الميليشيا[٣] للتحرك فى أى وقت وكانت الميليشيا يتم تجنيدها على أساس رجل واحد لكل ستمائة هكتار[٤] وتستدعى لمدة شهرين عند اللزوم .

وكانت هناك طبقة أخرى تعرف باسم « ثاجين »[٥] وكلتا الطبقتين الميليشيا و الثاجين يتبعان الملك بصفة مباشرة بالنسبة للخدمة العسكرية .

وكان الجيش الإنجليزى يقاتل دائماً مترجلا ، أما تسليح جنوده فيكون من الحربة والرمح وسيف مزدوج الشفرة والفأس الثقيلة الدانمركية . وكانت الرماية تعتبر من الرياضيات الشعبية والمحببة بين الإنجليز ولكنها كانت تستخدم قليلا فى القتال . أما الدروع فكانت مستديرة أو رباعية التضاليع ، وكان الأثرياء من المقاتلين يرتدون الخوذة والرداء المعدنى . وللملك حرس خاص من المحترفين علاوة على وجود مشاة مدربة تدريباً راقياً تسمى «الهاوسكارل» وقد بقى هؤلاء معه فى سيوسكس خلال صيف ١٠٦٦ .

نعود ثانية إلى الموقف العسكرى قبل المعركة فنجد فى ٨ سبتمبر بدأت المؤن فى النفاذ من الأسطول الإنجليزى الذى كان يجوب بحر المانش وأجبر على العودة إلى لندن للتزويد بالمؤن وإجراء بعض الإصلاحات التى أصابته أثناء سوء الأحوال الجوية فى شهر أغسطس .

---

(١) كان العدو اللدود للملك إنجلترا .

(٢) لقب إنجليزى يمنح للعظماء وهو أدنى من مركيز وأعلى من كونت .

(٣) قوات الحرس الوطنى ويطلق عليهم فى إنجلترا «فيرد» ويشكلون القوة الرئيسية للجيش الإنجليزى .

(٤) الهكتار مساحة من الأرض تبلغ ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو نحو ٤٠٠٠ متر مربع .

(٥) هؤلاء فى مرتبة أعلى من المواطن العادى ولكن أقل رتبة من الطبقة الأرستقراطية .
« المعرب »

ولم يمض سوى أسبوع على وصول الأسطول الإنجليزى إلى لندن ، حتى علم هارولد بوصول ٣٠٠ سفينة نرويجية إلى ساحل يوركشير وسقوط كل من كليفلاند وسكاربورد ، وعلى الفور فرر هارولد ترك الساحل الجنوبى بدون حراسة والتحرك بكل قواته إلى الشمال ، وفى طريقه وصلته أنباء بأن اثنين من إيرلات الشمال وهما « أدوين » و « موركار » قد هزما فى معركة ضارية عند « فولورد » خارج « يورك » وأن مدينة يورك على وشك الاستسلام . وقد وصل هارولد إلى يورك فى الوقت المناسب ليمنع كارثة الاستسلام . وبعد ظهر ٢٥ سبتمبر استدرج القوات النرويجية إلى معركة عند « كوبرى ستامفورد » على نهر الدرونت والذى يبعد سبعة أميال من يورك .

وهناك حققت قوات الثاجين أعظم انتصاراتها ، وفى هذه المعركة لقى كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما ولحقت بقواتهما هزيمة ساحقة ، ولم يهرب منهما إلا عدد قليل عن طريق البحر .

نعود إلى ويليام فنجد أنه فى ٢٨ سبتمبر أنزل جيشه على الساحل الجنوبى الإنجليزى وطبعاً بدون أى مقاومة[١] ، فى نفس هذا اليوم كان هارولد وجيشه يستريحون فى يورك[٢] ويحتفلون بالنصر الذى حققوه على النرويجيين .

وقد دأب ويليام على الاستعداد لغزو إنجلترا من شهر يناير وكان يعمل على قدم وساق لتكوين جيش قوى والحصول على أسطول يتكون على الأقل من ٤٥٠ سفينة نقل ، ولذلك أصدر أوامره بالإلتزامات والواجبات التى يجب أن يقدمها تباع النظام الإقطاعى من حكام[٣] المناطق والمقاطعات .

علينا أن نلقى نظرة على قوات ويليام فنجد أن الفارس (الفارس النبيل) كان من أبرز جنود العصور الوسطى ويرتدى قميصاً طويلا من المعدن وخوذة ذات حافة أمامية وأحيانا

(١) لقد كان الساحل بدون حراسة بعد أن دفع هارولد جميع قواته نحو الشمال .

(٢) كانت تبعد عن الساحل الجنوبى بمسافة ٢٥٠ ميلا .

(٣) كان على كل بارون وكل أسقف منح أرض من ويليام أن يقدم عدداً معيناً من الفرسان أو المحاربين الراكبين ذوى الدروع الثقيلة لخدمة الدوقية . « المعرب »

ذات شكل مخروطى مع واق للأنف ، ويحمل درعاً على شكل الشراع ، مستدير عند القمة ومدبباً عندالقاع ويصل ارتفاعه من ٣ إلى ٤ أقدام ، وهذه الدروع مزخرفة ، والسلاح الرئيسى للفارس الرمح الذى يصل طوله إلى ثمانية أو تسعة أقدام وله رأس عريضةمن الحديدوكان يثبت من مؤخرته العريضة فى الركاب عند عدم استعماله .

ومع منتصف القرن الحادى عشر ، وصل سيف القرون الوسطى إلى ذروة تطوره ، وظل هكذا بدون أى تغيير لمدة أربعمائة سنة ، بشفرته المزدوجة ونهايته المدببة ، ووصل طوله إلى ٤٤ بوصة من المقبض إلى الطرف .

وكان يحمل الفارس بالإضافة إلى الرمح والسيف فأساً ذات شفرة عريضة أو مقرعة ذات رأس حديدية وكان يفضلها الفارس دائماً .

ومع عام ١٠٦٦ استخدمت الفرسان النورمانديين بأسلوب ممتاز تحت قيادة ويليام ، ولكن صادفته مشكلة بالنسبة للفرسان وهو أن التقاليد الإقطاعية حددت خدمة الفارس داخل حدود الدوقية بأربعين يوماً فقط ، ولذلك أصبح واضحاً أن هذه المدة لن تكفى للقيام بغزو خارجى . ولكن لحسن حظه أن معظم البارونات كانت على استعداد للخروج معه ، علاوة على علم البابا بالغزو وموافقته عليه . وكانت توجد عوامل كثيرة دفعت كل هؤلاء على مساندة ويليام فقد أغراهم ثراء إنجلترا علاوة على الشعب النورماندى يتفجر نشاطاً ويشعر فى نفس الوقت بالضغط الاقتصادى الناتج عن إزدياد تعدد السكان ، وبذلك ضمن ويليام المقطوعين والمرتزقة ليس فقط من النورمانديين بل أيضاً من جميع أنحاء فرنسا وحتى من المغامرين النورمانديين فى جنوب إيطاليا .

وبكل هذه الإمكانيات استطاع حشد جيش بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ فارس من بينهم على الأقل ١٢٠٠ من النورمانديين وهؤلاء كانوا يشكلون النواة الصلبة لجيشه ، وحتى يكمل هيكل جيشه ، قام بتجنيد ما بين ٣٠٠٠ — . . . ٤ من المشاة وحملة الأقواس وربما أيضاً من رجال القوس النشاب[1] بالإضافة إلى الجنود الراجلين كل منهم مسلح بمنخس

---

(١) كان أقوى من القوس العادى ومشتق من المنجانيق والقوس العادى ، ويحتمل أنه استخدم قبل بداية القرن الحادى عشر بفترة وجيزة وكان القوس النورماندى يصل طوله إلى خمسة أقدام ، وعند استعماله يجب أن يجذب حتى الصدر . « المعرب »

وسيف ، وجميع مشاة النورمانديين يرتدون قمصاناً معدنية على عكس معظم جنود الإنجليز من الميليشيا .

المقامرة الجسيمة

فى نهاية أغسطس ١٠٦٦ حشد ويليام جيشه عند مصب نهر ديفيس لعبور بحر المانش عند أول فرصة ، ولكن الرياح الشمالية القوية منعته من الإبحار لمدة ستة أسابيع ، وخلال هذه المدة حافظ ويليام على استقرار النظام بين صفوف قواته مع احتفاظهم بقدرتهم القتالية ومستواهم العالى فى التدريب .

واستغل الرياح الغربية وتحرك بأسطوله حتى مصب نهر السوم ، وفى مساء ٢٧ سبتمبر تحولت الرياح إلى الجنوب فعلى الفور صعد الجيش إلى السفن ، وتحرك عابراً بحر المانش فى هذه الليلة ، وفى الصباح المبكر لليوم التالى ، نزل ويليام وقواته على الشاطىء الإنجليزى الخالى من القوات عند خليج بيفينسى(١) ، وعلى الفور تم تجميع وتركيب الحصن الذى جهز قبل ذلك ، فى الميناء الرومانى القديم وذلك لحماية سفن أسطوله .

وفى المساء طبقاً لما قاله الشاعر «واس» : — «أكل الجميع وشربوا ما فيه كفايتهم واحتفلوا بوجودهم على الشاطىء الإنجليزى » .

وفى اليوم ٢٩ سبتمبر تقدم النورمانديون إلى هاستنجر ، وبطريقة تلقائية نهبت المدينة ، بينما بقى الأسطول النورماندى تحت الحراسة فى الميناء .

فى ذلك الوقت كان هارولد لازال فى يورك ، يحاول تجميع قواته وإعادة القدرة القتالية لهم بعد معركتهم التى لم يمر عليها وقتاً طويلا عند كوبرى ستامفورد . فى العاشر من أكتوبر علم هارولد بنزول النورمانديين ، وفى اليوم التالى تحرك جنوباً ومعه حرسه ، ووصل إلى لندن بعد عملية الإنزال النورماندى بأسبوع .

وقد اضطر الانتظار فى لندن حتى يعيد الجيش حشد وتنظيم قواته عند « شجرة التفاح

---

(١) بضعة أميال إلى الغرب من هاستنجز .

« المعرب »

العتيقة[1] » بعد تحركه هذه المسافة الكبيرة . ولم يصل هارولد نفسه إلى هذه المنطقة إلا فى الثالث عشر من أكتوبر .

والآن ، نلقى نظرة على استراتيجية هارولد وخططه التى قررها للمعركة ، سنجد أنه كان ينوى تنفيذ نفس الخطة التى استخدمها عند « كبرى ستامفورد » ، ويتضمن ذلك التقدم بأقصى سرعة ومهاجمة ويليام بأفضل ما لديه من قوات ، آملا فى تحقيق عنصر المفاجأة ، نعود إلى ويليام فنجد أن المعلومات التى وصلته من الجواسيس تتضمن أن هارولد وجيشه على بعد ٢٥٠ ميلا ، يستريحون من عناء معركة ضارية وبالتالى أصبح من المشكوك فيه أن يستطيع هارولد التقدم بسرعة وتحقيق المفاجأة .

ولو تخيلنا ما كان يدور فى رأس هارولد ، لوجدنا أنه قدر أن النورمانديين يتحتم عليهم خوض معركة حاسمة وبسرعة بقدر الإمكان ويجب أن ينتصروا فيها ، وذلك لأن ويليام وجيشه موجود حالياً على أرض إنجليزية معادية، ويوجد خلفه بحر المانش الإنجليزى والذى يجوبه الأسطول الإنجليزى مرة أخرى ، ولذلك كلما طالت المعركة كلما زاد تعرض القوات النورماندية للاستنزاف وضعف روحهم المعنوية ، بينما ستتاح الفرصة لهارولد طوال فترة القتال للحصول على مزيد من القوات .

وعلى كل دخل ويليام فى مغامرة جسيمة ، وربما يقول البعض أنه دخل « مخاطرة محسوبة » ، وهم يستخدمون بذلك التعبير الذى كان يستخدمه أحياناً الجنرالات الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما لا تسير الأمور فى إطار خططهم .

وعلى كل فالمغامرة حتى الآن فى صف ويليام ، فقد ساعده الغزو النرويجى والطقس الإنجليزى غير المتوقع ، على تحقيق نزول سهلا على ساحل إنجلترا الجنوبى ، ولكن على ويليام بعد ذلك أن يثبت مقدرته القيادية بحسابات هادئة مع استخدام البراعة والذكاء .

---

(١) تقع على بعد ستة أميال شمال هاستنجز بالقرب من المدينة التى تعرف حالياً باسم « باتل » . « المعرب »

فنجد أن ويليام درس شخصية هارولد جيداً ، لذلك قرر أن يدفعه ليتبع أسلوباً متهوراً وعنيفاً معه ، فقام بتدمير سيوسكس[١] لأنها من الممتلكات الشخصية لهارولد ومن الطبيعي لن يقف مكتوف الأيدي ويراقب بهدوء المدينة وهي تعانى هذا الدمار وبذلك يتهور ويتبع أسلوباً طائشاً .

فى ذلك الوقت قدر ويليام الموقف بالنسبة لهارولد فوجد أن أفضل استراتيجية يتبعها هارولد هى الإنتظار فى منطقة ملائمة إلى الجنوب من لندن حتى يتم له حشد جميع قواته وفى نفس الوقت يهاجم أسطوله ، السفن النورماندية القابعة فى ميناء هاستنجز ويدمرها .

بعد ذلك يحاول استدراج الجيش النورماندى للقتال فى منطقة « ويلد[٢] » والتى يكثر بها الغابات بتحقيق النصر كاملا ، ومن دراسة ويليام لهارولد علم أنه لن يتبع هذه الاستراتيجية .

ومن الجدير تسجيله هنا ، أن الإنجليز نفذوا هذه الخطة التى قدرها ويليام بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، عندما تعرضوا للغزو الفرنسى عام ١٣٨٦ ، وأيضاً فى الفترة ما بين ١٨٠٣ — ١٨٠٥ ولم ينجح أى من الغزوين .

شجرة التفاح العتيقة (أنظر اللوحة رقم ١٦)

نعود الآن إلى هارولد ، فنجد أنه قدر الموقف بالنسبة لخصمه ووجد أن ويليام يجب أن يبدأ المعركة بسرعة وإلا سيخاطر مخاطرة جسيمة ، قد تجره إلى كارثة مروعة وطبعاً كان خاطئاً ، بينما كان ويليام تقديره صحيحاً بالنسبة لهارولد وأنه لن يقوم باتباع الاستراتيجية الصحيحة والتى كان من الممكن اتباعها ، بل تصرف تصرفا طائشا متهوراً ، فقد زحف بقواته من لندن إلى هاستنجز مباشرة ، وقبل أن يصبح ثلث جيشه قادرا على القتال ولم يحقق المفاجأة التى كان يرجوها ، لأن قوات استطلاع ويليام أبلغته عن هذا التحرك .

---

(١) لقد دمر ويليام سيوسكس وهذا العمل يعتبر بعيداً عن الأخلاقيات ولكن فى نفس الوقت يدل على الدهاء .

(٢) ويلد بين هاستنجز ولندن . « المعرب »

وفى ليلة ١٣ أكتوبر أخذ النورمانديون يصلون ويستعدون للمعركة ، وقبل شروق الشمس فكوا معسكرهم وتقدموا للأمام مسافة ستة أميال إلى « تل تيلهام » والذى يقع فى مواجهة «هضبة شجرة التفاح العتيقة» ، وبذلك حقق ويليام المفاجأة على الإنجليزوخاصة أن الكثير من قوات هارولد وصلت إلى المنطقة خلال الليل وكانت متعبة وتغط فى نوم عميق ، بينما الكثير من قوات الميليشيا قد وصلت لتوها إلى ميدان المعركة .

ولكى يحافظ ويليام على شرعية القتال ، أرسل مبعوثاً إلى هارولد يطلب منه التفاوض لإجراء تسوية سلمية على أن يتم ذلك خلال إحدى عشر ساعة ، وفى نفس الوقت استغل ويليام الفرصة ليثير بعض أعدائه ويخبرهم بأنهم حرموا من رضى الكنيسة لمعارضتهم غزوه .

وبالرغم من أن عنصر المفاجأة كان فى جانب ويليام ، إلا أن هارولد كان يتمتع بإحتلال موقع دفاعى ممتاز[١] ،بإحتل جيشه الهضبة بالكامل وإقامة « الدرع الساتر » بجميع قواته وبمواجهة حوالى سبعمائة ياردة حتى يصبح من العسير على النورمانديين ضرب مؤخرته أو أجنابه ، بينما كانت القوات النورماندية تحتل تل تيلهام ويفصل بين الجيشين الوادى المستنقعى .

وكان تشكيل المعركة كالآتى :ـ حشد هارولد لوائين من أكفأ قوات المشاة[٢] فى الوسط ووضع قوات من « الهاوسكارل »[٣] على جانبى اللوائين بينما وضع قوات الميليشيا على الجناحين وكان يحتل كل مقاتل من قوات المقدمة مساحة قدمين من المواجهة ، أما عمق القوات فكان حوالى عشرة أو إثنى عشر صفا . وكان المجموع الكلى للقوات الإنجليزية حوالى ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل . وكان موقف قوات هارولد سيئا للغاية ، فالكثير منهم أنهكتهم

---

(١) لقد استطلع هارولد هذا الموقع بنفسه خلال الصيف، واختار أرض المعركة والتى كانت عبارة عن هضبة تبعد ميل ونصف من هضبة شجرة التفاح العتيقة، وتنحدر برفق نحو الجنوب الى الوادى مستنقعى.

(٢) كانت هذه القوات تتشكل من مجموعة « المقاتل » ومجموعة « دراجون ويسكس » وهى من المشاة ذات الكفاءة العالية .

(٣) كانت قوات الهاوسكارل لها شهرة واسعة كأرقى أنواع المشاة فى أوروبا ، لأنها عندما تدخل المعركة وتستنزف عدداً تصمد وتقاتل وهى مملوءة ثقة بالنصر . « المعرب »

المسيرة الطويلة من لندن فى اليوم السابق للمعركة ، والبعض الآخر لم يعاد تسليحه بالسلاح الملائم بعد معركة « كوبرى ستامفورد » ، علاوة على افتقار هذه القوات للرماة التى عاونت وبكفاءة فى معركة « كوبرى ستامفورد » ، والتى كان من الممكن أن تحدث الفوضى والدمار بين صفوف الفرسان النورماندية ، علاوة على أن قوات الميليشيا التى جمعت من الجنوب على عجل لم يكن لديها ما تقاتل به اللهم إلا الهراوات والعصى والمعاول . ولكن كانت جميع القوات الإنجليزية مؤمنة إيمانا راسخا بهدف واحد وهو ضرورة طرد هذا الغازى الغادر .

بعد أن اتخذ الجيش الإنجليزى مواقعه فى خط المعركة ، قام هارولد بالمرور خلاله مذكراً رجاله بأنه لن يحدث أى عواقب وخيمة طالما حافظ كل منهم على صلابة وتماسك هذا « الدرع الساتر » . . . ولكن دعونا نرى ما حدث .

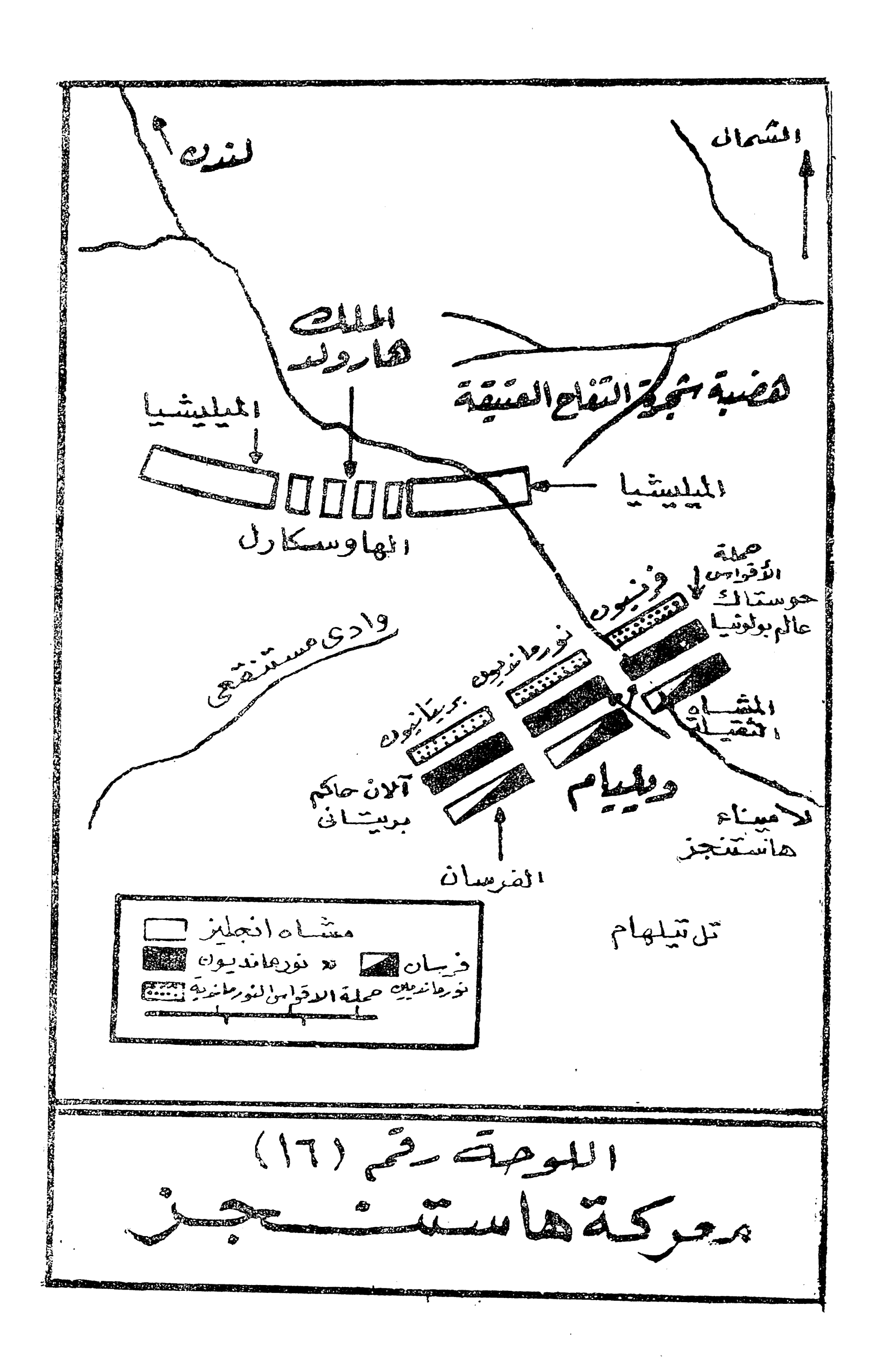
عظام بايو المقدسة (أنظر اللوحة رقم ١٦)

وفى يوم ١٤ أكتوبر زحف النورمانديون مبكرين من هاستنجز وقسموا قواتهم إلى ثلاثة فرق ، إلى اليسار فرقة البريتانيين[١] تحت قيادة الكونت آلان (كونت بريتانى) وإلى اليمين فرقة الفرنسيين وبعض المرتزقة تحت قيادة أوستاك (حاكم بولونيا) وفى الوسط فرقة النورمانديين تحت قيادة ويليام نفسه ، وكانت كل فرقة تتشكل من ثلاثة خطوط ، فى المقدمة حملة الأقواس ثم المشاة الثقيلة ثم الفرسان .

وقد حمل الشعار البابوى فى مقدمة الجيش ، وقبل بداية المعركة بمدة قصيرة ارتدى الفرسان دروعهم الثقيلة وبذلك حافظوا على كامل قواهم ونشاطهم حتى اللحظة الأخيرة ، وأخيراً قام ويليام بتعليق عظام بايو[٢] المقدسة حول عنقه وكان يصحبه فى المعركة أخويه (غير الشقيقين) روبرت (كونت ماتين) وأودو (أسقف بايو) ، كما كان يصحبه أيضاً أصدقائه « ويليام جيفارد » و « ويليام ما ليت » .

---

(١) نسبة إلى بريتانى التى تقع فى شمال غرب فرنسا .
(٢) عظام رفات جثة القديس بايو .



اللوحة رقم (١٦)

معركة هاستنجز

بدأ النورمانديون تقدمهم من « تل تيلهام » وانتشرت صفوفهم بشكل مستعرض لتغطية الخط الإنجليزى بالكامل وكان يسير فى مقدمة الجيش على أنغام قيثارته المغنى « تيليفر » ملوحاً برمحه من فوق حصانه منشداً « أغنية رولان » وظل كذلك حتى لقى مصرعه .

بدأ أول هجوم حقيقى حوالى الساعة التاسعة ، ومع إزدياد أقتراب النورمانديون بدأ رماتهم فى إطلاق سهامهم ، ولكن معظمها كان ينطلق إلى أعلى التل ويمر من فوق رؤوس الأنجليز أو تصدها دروعهم ، وعلى الفور تولت المشاة الثقيلة الهجوم ، ولكن كانت مقاومة الإنجليز فى غاية الصلابة ولذا نجحوا فى صدهم .

وقد وصف ويليام[1] هذه المعركة : — « لقد تلاشت صيحات الجانبين بين صليل الأسلحة .. وصرخات الموت ..

واشتعلت المعركة إلى أقصى عنفوانها ..وأغتنم الإنجليز فرصة موقعهم القوى وحافظوا على تماسك جبهتهم وصمدوا ببسالة ونجحوا فى صد القوات التى أشتبكت معهم من مسافات قريبة .. »

وفى الحقيقة فشل هجوم الرماة والمشاة الثقيلة النورماندية على درع الإنجليز الساتر ، وقد أصيبت المشاة والفرسان البريتانية بالذعر وتشتتوا هاربين ، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى بات ظاهراً أن جيش ويليام يحيق به خطر الإنسحاب .

وأصبح الجيش الأنجليزى فى أمان طالما الدرع الساتر ظل متماسكا ، ولكن بعض جنود الميليشيا الجدد الموجودين على الجناح الأيمن تركوا مواقعهم بدون أوامر لمطاردة فلول الفرسان البريتانية المنسحبة أسفل المنحدر[2] ومن الطبيعى عندما تقوم المشاة المترجلة بمطاردة القوات الراكبة ، فهذا يعنى كارثة محققة لها .

فى ذلك الوقت فقد ويليام جواده وارتفعت الصيحات تقول ، بأنه قد قتل ، ولكنه على الفور إمتطى جواداً آخر بسرعة وأظهر نفسه بين رجاله واعاد أحكام قبضتــه على المعركة ، وقد نتج عن هذه المطاردة أن تصدع جزء من الجناح الأيمن للجيش الإنجليزى ، إلا أن

---

(١) لم يكن هذا الدوق ويليام الفاتح ، بل ويليام من بواتييه .

(٢) لم يكن من المعقول أن يصدر هارولد أوامره بالهجوم المضاد فى تلك المرحلة المبكرة من المعركة « المعرب »

باقى الجناح الأيمن ظل صامداً وبقوة . وعلى أرض الوادى الرخوة ، بدأت المشاة التى تقوم بالمطاردة فى الترنح والاضطراب ، فى ذلك الوقت أخذ ويليام يحشد فرسانه وقام بهجوم جديد بهم ، واستمرت الهجمات المضطربة لعدة ساعات(١) .

الخطة البيزنطية القديمة

لقد لعب ويليام دوراً بارزاً فى القتال ، وقتل تحته أكثر من جواد ، بينما لم يصب هو بأذى ، وطبقاً لما ذكره ويليام : — « لقد سيطر ويليام على المعركة ، وأخذ يرفع الروح المعنوية لرجاله ويقاسمهم أخطارهم ، بينما قاتل الإنجليز بثقة وبكل قوة وناضلوا باستماتة لمنع المهاجمين من اختراق صفوفهم ، تلك الصفوف التى كانت متقاربة ومتلاصقة لدرجة أن من يصرع منهم لم يوجد له مكان ليسقط فيه » .

وكما قال ويس : — « ظل كل منهما صامداً بقوة ويقاتل بطريقة يصعب معها أن يخمن المرء من منهما سيكون له الغلبة فى النهاية » ومع انتصاف النهار ، قرر ويليام استخدام الخداع متذكراً ما حدث فى الصباح عندما انسحبت قواته البريتانية مما أدى أن القوات الإنجليزية قامت بمطاردتها وتفكك الجناح الأيمن للجيش الإنجليزى وفقد تماسكه ، لذلك قرر القيام بانسحاب مخادع على الجانب الآخر . وكانت هذه فكرة بيزنطية قديمة ، وقد نجحت نجاحاً باهراً ، فمعظم الجناح الأيسر الإنجليزى وطبعاً بدون أوامر من هارولدهبطوا المنحدر إلى أسفل الوادى فى مطاردة لهذا الإنسحاب المخادع ، وعندما وصلوا إلى وسط الوادى استدارت الفرسان النورماندية وانقضوا عليهم فى هجوم وحشى كانت له آثار بعيدة . فى ذلك الوقت ظلت قوات الوسط من الهاوسكارل وجزء من الجناح الأيسر صامدة فى أماكنها كالحائط الصلب المتماسك .

وعند الغروب ، كان التعب قد أصاب الفرسان النورماندية علاوة على خوفهم من الفئوس الأنجليزية القاتلة . ومرة أخرى ظهر ويليام أنه قائد واسع الحيلة والدهاء ، فقد قرردفع رماته

(١) كان فرسان القرن الحادى عشر لا تهجم فى حشد كبير متماسك ، بل يركبون الى خط القتال فى مجموعات أو فرادى وأثناء القتال يستخدمون الرماح أولا ثم السيوف والفئوس والمقارع من المسافات القريبة . « المعرب »

التى فشلت فى الصباح بعد أن استعادوا نشاطهم وحيويتهم إلى القتال مجربا نوعاً آخر من الهجوم . فقام ويليام بوضع رماته وتوزيعهم على خط طويل مرن وبه عدة ثغرات حتى تستطيع الفرسان المرور منها . تقدم هذا الخط بسرعة صاعدا إلى أعلى الهضبة التى بها قوات الإنجليز بينما تسير الفرسان خلفه وبسرعة متوسطة تتلاءم مع سرعة المشاة ، وتوقف الرماة على بعد مائة ياردة من الخط الإنجليزى وأخذوا يطلقون سهامهم فى اتجاه رأسى نحو السماء وبالتالى تساقطت هذه السهام كالمطر فوق القوات الإنجليزية . وكما يقول ويس: — « كانت القوات الإنجليزية خائفة من فتح أعينهم أو رفع أيديهم التى تغطى وجوههم » .

وبعد ثوان من الاضطراب والرعب الذى أحدثته سهام الرماة فى القوات الإنجليزية شن الفرسان هجومهم مارين خلال الثغرات الموجودة بين رماتهم ، ولكن الإنجليز دافعوا باستماتة ، إلا أن الجناح الأيسر للانجليز أخذ يتصدع أمام القوات البولونية تحت قيادة أوستاك .. وأخيراً بدأ كل الدرع الساتر فى التمزق ، ولاذا الكثير من الميليشيا بالفرار ، أما قوات الهاوسكارل الإنجليزية فقد انسحبت بطريقة منظمة إلى أن انطلق ويليام فى مطاردتهم وتمكن من بعثرتهم ، وعندما عاد إلى ميدان القتال بعد حلول الظلام وجـــد جثة هارولد عارية وممزقة ويصعب التعرف عليها .

المعركة التى غيرت مجرى التاريخ الانجليزى

والآن سوف نناقش باختصار القيادة لكلا الجانبين فى هذه المعركة ، ففى رأيى أن هارولد كان فى إمكانه هزيمة ويليام مع إلقائه هو وجيشه فى البحر ، وكان من المفروض تنفيذ هـذه الإستراتيجية بأسرع ما يمكن ، ولكن كان غير ممكن تنفيذها تكتيكياً بهذه الإمكانيات التى جهزت على عجل وبدون تخطيط محكم ومسبق . وقد سار هارولد وراء استراتيجية غير حليمة ودقيقة ، فنتج عن ذلك أن جميع خططه كانت مملوءة بالأخطاء ومعرضة للنقد ، ومن ذلك فلم يكن حكيما فى ترك الساحل الجنوبى بدون حراسة أو حتى مراقبة ودفع جميع قواته شمالا إلى يورك ، وأكثر من ذلك أنه لم يحسن إستخدام القوة البحرية بعد أن زودت بالمؤن وتم إصلاح الأعطاب التى أصابتها من عواصف شهر أغسطس ، فكان عليه أن يدفع أسطوله ليهدد سفن ويليام الراسية على الشاطىء وكان هذا كافياً ليثير الاضطراب ويخفض الروح المعنوية للنورمانديين ، وخاصة إذا تم ذلك فى الوقت المناسب ، وعلى سبيل المثال عندما كان جيش هارولد يقترب من قوات ويليام . ويمكن القول بأن هارولد أتبع استراتيجيـة

لا تلائمه بل تلائم ويليام ، وكأن ويليام يحركه ويجعله يرقص على نغماته . وعلى كل كان ويليام القائد الأفضل والأكثر خبرة من هارولد وكان بدون شك محظوظاً ولكنه جسوراً ... والجسارة تستحق الحظ . وقد أكمل ويليام فتح إنجلترا بعد انتصاره فى معركة هاستنجز ، وهذه المعركة غيرت مجرى التاريخ الإنجليزى .. وكان هذا التغيير إلى الأفضل.. فقد كان لدى النورمانديين الكثير ليقدموه إلى إنجلترا .

وقد تم تتويج ويليام الفاتح فى كنيسة ويستمنستر يوم عيد الميلاد ، وأصبح مسئولا من ذلك الوقت عن إنجاز أعمال كثيرة فى إنجلترا بعضها كان قاسياً ، ومنها على سبيل المثال إخضاع إكستر وغزو الشمال ..

وقام النورمانديون من المحاربين والإداريين ورجال الدين والتجار بتكملة الفتح بكل حماس ، وبذلك اختفى العنصر الاسكندنافى من الحياة الإنجليزية ، وبدأ يرتبط تاريخ وحضارة إنجلترا بتاريخ وحضارة فرنسا ، وأصبحت إنجلترا تخضع تماما للنظام الإقطاعى ، لصالح الملك أولا ثم للأمراء النورمانديين ثانياً .

وفى القرن الثانى عشر أصبحت الإمبراطورية النورماندية أعظم قوة فى أوروبا ،ووصلت إلى ذروتها فى عهد هنرى الثانى عندما أصبحت تمتد من اسكتلندا وإيرلندا خلال إنجلترا وغرب فرنسا إلى جبال البرانس على الحدود الأسبانية . ولكن فى عام ١٢١٤ تسببت حماقة أبناء هنرى (ريتشارد وجون) فى انهيار الإمبراطورية فى معركة بوفين عندما انتصر عليهم فيليب أغسطس [١] ، وقد لحقت الهزيمة والعار بالملك جون (ملك إنجلترا) مما أدى فى النهاية أن تمرد فرسانه عليه .

قلاع « الموت »

إذا ألقينا نظرة على المجتمع النورماندى إبان منتصف العصور الوسطى ، سنجد أنه كان مقسم إلى ثلاث طبقات ، كما كان الحال فى جميع المجتمعات الأوروبية .

١ — المقاتلين . ٢ — الرهبان . ٣ — العمال والفلاحين .

وكانت الطبقة العسكرية تتبع سياسة دفاعية وتعتمد اعتماداً كاملا على القلاع التى ترمز

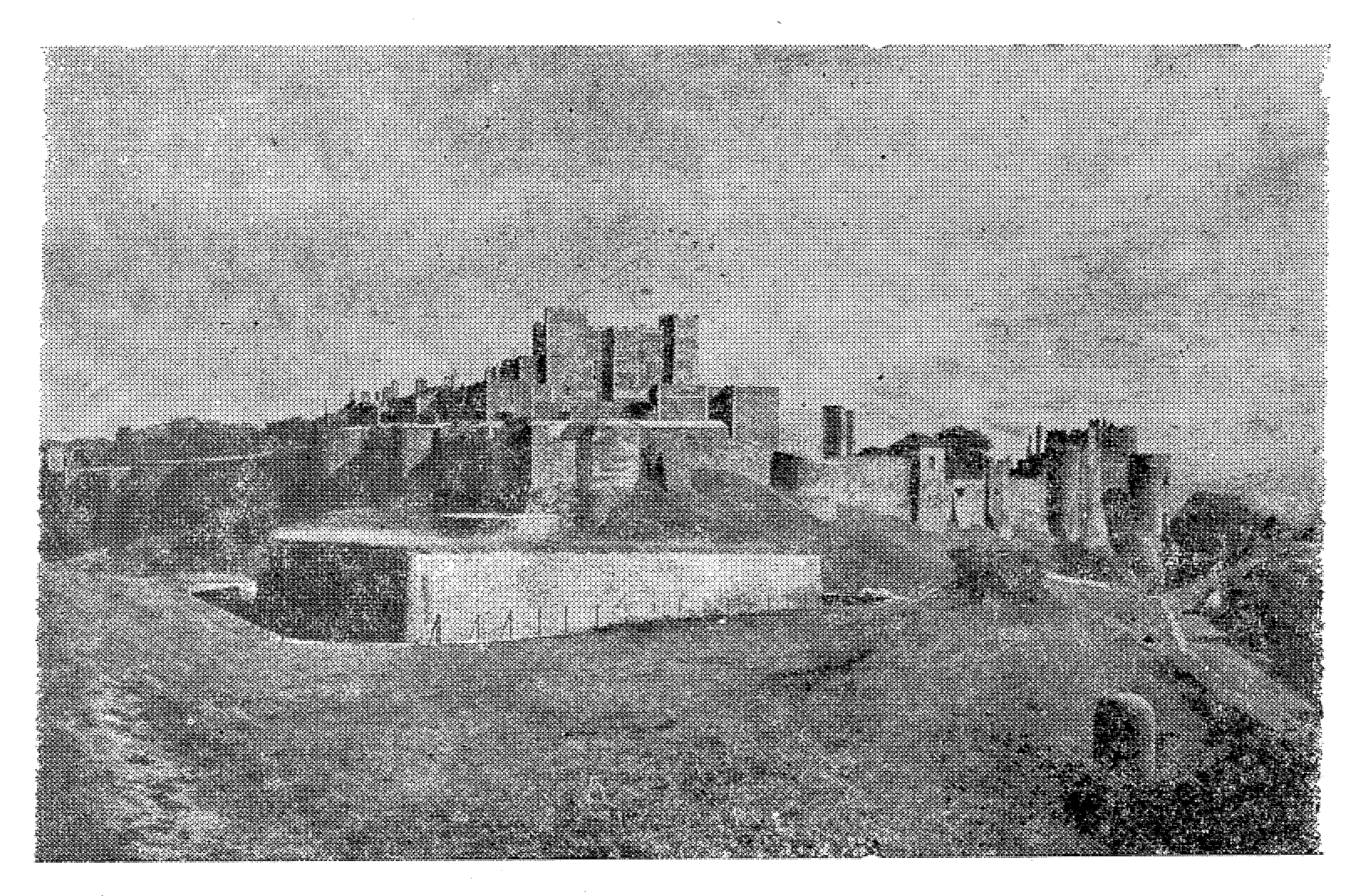
(١) كان فيليب أغسطس من أعظم رجال الدولة بين ملوك فرنسا

إلى قوتهم ، وكان هذا من الملامح الرئيسية للحكومة الإقطاعية ، ولذلك تطور فن هندسة المبانى العسكرية تطورا كبيرا فيما بين الأعوام ١٠٠٠ — ١٣٠٠ ، ولكن لم يكن هناك تطورا مماثلا فى مجال الأسلحة الهجومية وأساليب فن الحصار ، فقد أصبح الدفاع هو الأسلوب المميز للحرب فى هذه الحقبة من الزمان ، وأصبح الهجوم فى المرتبة الثانية ، والمعارك الهجومية الضارية واسعة النطاق أصبحت نادرة الحدوث . وكانت القوات تفضل البقاء آمنة داخل التحصينات القوية بدلا من المخاطرة والقتال فى الأراضى المفتوحة . وكان الحكام الذين يمتلكون قلاعاً كثيرة مثل معظم ملوك إنجلترا يصبحون فى مركز القوى ، أما الحكام الذين لم يستطيعوا منع البارونات من امتلاك قلاع مستقلة ، كانوا معرضين دائماً لمتاعب جمة ، مثل معظم الأباطرة الألمان .

وفى القرن الثانى عشر ، لم تحقق المفاهيم التكتيكية سوى تقدما ضئيلا ، ومن دواعى الفشل المخيب للآمال أن تطبق الدروس المستفادة خلال الحرب العظمى فى الشرق على القتال الذى دار فى الغرب بالرغم من اختلاف كل منهما اختلافا تاماً . وعلى كل كان ينشب على فترات معارك ذات صبغة سياسية بارزة ، مثل الانتصارات التى حققها هنرى الأول (ملك إنجلترا) فى تنشيرى عام ١١٠٦ ، وعند بريمول عام ١١١٩ ، ولكن فى الحقيقة فمن الصعب أن يطلق عليها اسم « معارك » لأنها لم تكن أكثر من مجرد اشتباكات قصيرة لبضع مئات من الفرسان ولذلك لم يتأثر المؤرخ العسكرى بما سمى « بالمعارك » ، بقدر ما أثر فيه معارك الحصون والقلاع .

وقد إزدهرت من جديد فى كل من فرنسا وإنجلترا بناء التحصينات الخشبية وأعمال الحفر كأفضل استراتيجية ضد الفايكنج ، وقد أقيم معظمها فوق بقايا التحصينات القديمة . ولكن مع منتصف القرن الحادى عشر طور النورمانديون الحصون ، وقدموا لأوروبا طرازاً جديداً وهى القلاع المسورة أو قلاع الموت ، كانت فى أول الأمر تحاط بخندق وتطور بعد ذلك الى حاجز دفاعى محاط بسور من الأعمدة الخشبية المتلاصقة والمثبتة فى الأرض . وكان للقلعة فناءين أحداهما معد للخدمة وأمناء مستودعات الإمداد حيث يوجد المخبز وحظائر الدجاج والأسطبلات والورشة ، أما الفناء الثانى معد لجنود الحامية ومن حوله توجد غرفة الحرس ومستودع السلاح .

وفى مركز القلعة يوجد حصن وهو عبارة عن برج ضخم ، ويعتبر الحصن الأخير للصمود اذا هوجمت القلعة ، ويعتبر المقر والمعقل للبارون وعائلته وأتباعه . والمدخل الرئيسى للقلعة عبارة عن كوبرى متحرك من الخشب بعرض الخندق ، ويمكن سحبه الى الخلف بواسطة المدافعين عن القلعة . وفى القرن الحادى عشر ، كانت معظم تحصينات القلاع من الخشب ، ولكن كان يوجد بعض الإستثناءات ، وعلى سبيل المثال تم استخدام الحجارة بدلا من الأخشاب عند إقامة القلعة عند برونى فى نورماندى . وقد إزداد بعد ذلك استخدام الحجارة لبناء القلاع لأن مصادر الأخشاب قد قلت علاوة على أن الخشب كان دائماً معرضا للحريق ، وأكثر من ذلك أن الأمراء استخدموا الحجارة طموحا منهم ورغبة فى أن يكون لديهم قلاعا قوية حصينة .



قلعة دوفر

برج لندن

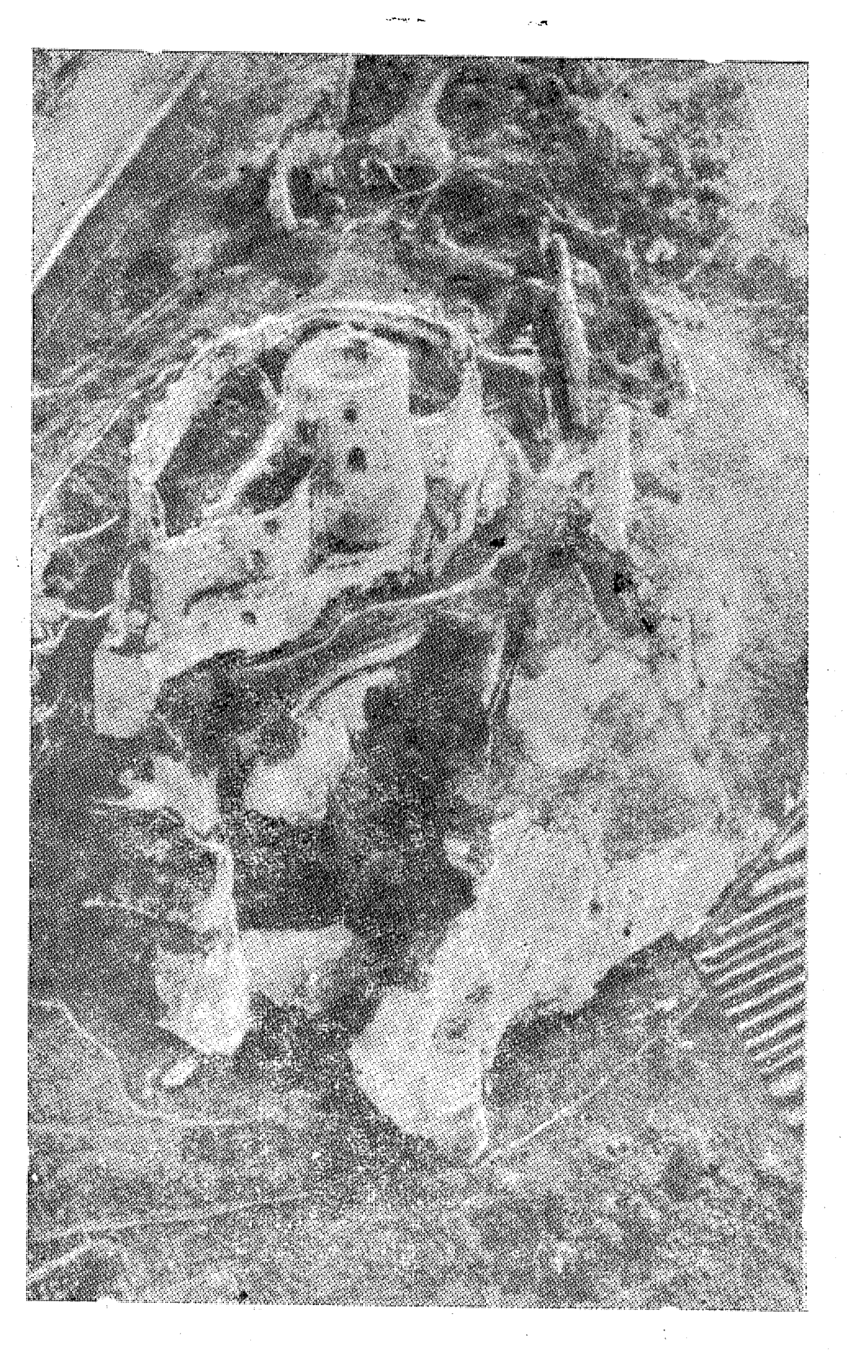
ومنذ نهاية القرن الحادى عشر أصبحت القلاع الحجرية أكبر وأكثر تعقيداً ، وتعتبر قلعة تامورث مثالا للقلاع الحجرية الأولى التي كانت تعرف باسم (القلعة الصدفيه) ، وقد

بنيت فوق هضبة محاطة بسور دائرى ومزودة ببرج مربع الشكل فى جزءه الشرقى . وفى القرن الثانى عشر حل طراز آخر أكثر أحكاماً من القلاع ، وهو « الحصن المستطيل » محل « الطراز الصدفى » . وكان يبنى على أرض مستوية صلبة وليس فوق تل أو هضبة ، ومنها « برج لندن » الذى لايزال قائماً حتى الآن ، وقلعة كورف التى دافعت عنها ليدى با نكس وجنودها أكثر من ثلاث سنوات ضدجيش كرومويل وقذائفه عام ١٦٤٠

وكانت القلاع المستطيلة تبنى بطريقة غاية فى الضخامة مثل قلعة دوفر التي شيدت عام ١١٨٠ ، بحوائط إرتفاعها ٨٣ قدماً ومزودة بأبراج يرتفع كل منها ١٢ قدما أخرى ، والحوائط مقواة بدعامات (أكتاف) بسمك ٢٠ قدما ، وكان هناك ثلاثة أبراج أخرى لتدعيم المبنى الأمامى للقلعة . ويوجد قاعتين رئيسيتين كبيرتين فى الطابق الثالث ، وكنيستين صغيرتين فى الفناء الخلفى وبئر عمقه ٣٥٠ قدما حيث تنقل منه المياه إلى جميع القلعة خلال أنابيب من الرصاص .. وهذه القلاع المستطيلة كانت جوانبها معرضة دائماً للهجوم سواء من آلات تحطيم الأسوار (الكباش) أو بقصفها بقذائف المنجانيق ، فكان العدو يركز هجومه على جانب واحد فقط لأنه يعلم أن زوايا السور سوف تحميه من المدافعين على الأجناب الأخرى للقلعة المستطيلة وكانت هذه نقطة ضعف خطيرة ، أمكن التغلب عليها ببناء أسوار دائرية أو حوائط متعددة الزوايا وبذلك يمكن الحد نسبياً من هذا الخطر .

ومع منتصف القرن الثانى عشر تغير شكل القلعة ومثال لذلك قلعة هودان فى فرنسا والتى بنيت حوالى عام ١١٣٠ فكانت مربعة الشكل من الداخل أما أسوارها فكانت دائرية من الخارج مزودة بأربعة أبراج بارزة ومستديرة .

ويوجد فى السور الخارجى الدائرى فتحات محفورة وأيضاً فتحات أخرى فى الأبراج لإطلاق السهام ، وكانت هذه الفتحات أكثر فاعلية من الشرفات المفتوحة على أسوار الحصون ، لأن المدافعين عن القلعة كانوا يطلقون قذائفهم على العدو فى الخارج من هذه الفتحات فى نفس الوقت لايستطيع العدو رؤيتهم مع توفير الحماية للمدافعين . وكانت هذه الفتحات فى طورها المبكر عبارة عن شقوق طويلة ، ولكنها أصبحت فيما بعد تحفر على شكل صليب لتتيح للرامى مجالا أفقياً أوسع .



قلعة شاتوجيلارد

الشمال

الفناء الخارجي

كوبري متحرك

كوبري متحرك

البوابة الخارجية

البوابة المتوسطة

بئر

كنيسة

الفناء المتوسط

البوابة الداخلية

الفناء الداخلي

البرج الرئيسي

خندق

باب خلفي

قدم

متر ٣٠ ٢٠ ١٠

رسم تخطيطي لقلعة شاتوجيلارد

وفى نهاية القرن الثانى عشر ، إزدادت قوة كل من القوس وآلات قذف الحجارة ، وقام المهندسون العسكريون بالرد على ذلك ببناء ستار أضخم من الأسوار ومضاعفة المساحات التي تطوقها تلك الأسوار ، وتضاءلت بالتالى أهمية الحصون والإستحكامات ، ومثال لذلك قلعة « شاتوجيلارد » التى أكملها ريتشار الأول ملك إنجلترا عام ١١٩٨ والتى تضم جميع الخصائص المميزة لأفضل أساليب التحصينات لذلك العصر .

وقد أختيرت هضبة شديدة الأنحدار يبلغ إرتفاعها ٣٠٠ قدم فوق مستوى نهر السين لتشييد هذه القلعة وكان لها ثلاثة[1] أفنية متدرجة مع سفح الهضبة وأقيمت كلها فى الإتجاه المحتمل الهجوم منه .

كان الفناء الداخلى يحيط بالبرج الرئيسى المقام على أعلى حافة الهضبة ، ويطل جزء منه على المنحدر الشديد أما الجزء الآخر فيطل على الفناء الداخلى وكان هو الجزء الوحيد المعرض للهجوم ولذلك قوى بحائط سميك على شكل حرف ٧ مثل مقدمة السفينة حتى تنحرف القذائف بسبب الميل الحاد للجدران ، وكانت الدعامات المبنية تحت الأسوار تحمى المدافعين من أعمال الحفر التى يقوم بها العدو للوصول إلى داخل القلعة ، وكانت فتحات الرماة الموجودة فى السور يوجد أسفلها كوة لحماية السور من محاولة العدو تحطيمه وفى نفس الوقت يلقوا من عليها المدافعون بكتل القار الملتهب والقذائف فوق رؤوس المهاجمين أسفلهم . وكان يفصل بين الأفنية خندق مائى وحائط ساتر ، وكانت الحوائط الساترة للفناء الخارجى والأوسط مدعمة بأبراج بارزة دائرية ، أما الفناء الداخلى فمزود بسلسلة متعاقبة من النتوءات البارزة ، والتى تؤدى وبطريقة أفضل نفس عمل الأبراج ، لأنها تمكن المدافعين من تغطية كل الأسطح خارج السور وفى جميع النقط .

النساء تأكلن اطفالهن

نجد أن معظم عمليات الحصار العديدة التى تمت فى العصور الوسطى لم تنجح ، باستثناء حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » والإستيلاء عليها فى الفترة ١٢٠٣ — ١٢٠٤ ، وهذا المثال سيعطينا صورة واضحة لأساليب الحصار التى كانت تستخدم فى ذلك العصر ، وأنها تحتاج إلى عبقرية فذة لنجاح مثل هذه العمليات الضخمة .

وإذا ألقينا نظرة على أسلحة وأدوات وأساليب الحصار منذ سقوط الإمبراطورية

(١) كانت عبارة عن الفناء الخارجى والمتوسط والداخلى

الرومانية لوجدنا أنها بقيت كما هى وبدون تغيير جوهرى ، وأقصى ماوصلت إليه لم يتجاوز بعض المزيد من القوة ، وكانت تتمثل فى الكباش وأبراج الحصار[١] وسلالم التسلق والسقيفات[٢] والساتر المتحرك[٣] وآلات رمى القذائف ، وكانت هذة القذائف عبارة عن أحجار أوسهام « مزودة بريش فى مؤخرتها » أو أعمدة خشبية أو قذائف نارية أو حتى كتل الجيفة[٤] . وكانت هذه الآلات يبدأ حجمها من المنجانيق الصغير الذى يصنع من جذوع الأشجار إلى قوس النشاب ، ولكن هناك شك كبير أن هذه الآلات فى العصور الوسطى كان لها نفس قوة وفاعلية الآلات الرومانية . وقد ظل أسلوب الإستيلاء على القلعة يتركز فى محاصرة وقصف الأسوار وأحداث المجاعة فى الداخل مع إستخدام أسلوب الخداع . وقد أثبت لنا التاريخ أن أسلوب أحداث المجاعة كان أقوى أسلحة الحصار . وسنأخذ مثالا لذلك حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » الذى بدأ فى نهاية صيف عام ١٢٠٣ ، وكان الملك جون ، ملك دوقيه نورماندى الإنجليزية يعتبرها الدفاع الرئيسى له، وكانت خطة فيليب أن يضعف حامية القلعة أولا بواسطة المجاعة ، ولذلك قام جيشه بحفر خطين من الخنادق لعزل الحامية عن النهر ، كما شيد أبراجاً خشبية على مسافات متباعدة بين الخنادق ، وأدى هذا أن نشاط القلعة أخذ يقل ببطء وبعد مرور ثلاثة أشهر بدأت المؤن تنفذ من القلعة ، فأرسل قائدها « روجردى لاس » ١٤٠٠ أمرأة وطفل ورجل عاجز إلى خارج القلعة ، ولكن الفرنسيون رفضوا السماح لهم بالمرور فى نفس الوقت لم تستطع حامية القلعة أعادتهم إليها مرة أخرى خوفاً من الخديعة ، مما أدى أن هؤلاء المنكوبين أجبروا على قضاء شتاء قاسى بين القلعة وخطوط الفرنسيين ، بدون أى طعام أو مأوى ، فأضطروا إلى أكل كلابهم أولا وعندما نفذت الكلاب ، أكلوا أطفالهم .

وفى ربيع عام ١٢٠٤ بدأ فيليب هجومه الرئيسى على القلعة مستخدماً آلات ضخمة

---

(١) كان يطلق على الأبراج فى ذلك الوقت اسم « بيفرواس » .

(٢) كانت عبارة عن حجرة أعلى برج الحصار ومكتظة بالجنود .

(٣) حاجز وقائى متحرك يحتمى به الجنود الذين يحاصرون القلعة ضد القذائف المنهمرة عليهم ويطلق عليه « مانتليت » .

(٤) أجسام الحيوانات الميتة المتعفنة ويطلق عليها « كاريون » . « المعرب »

لرمى المقذوفات وأيضاً أبراج الحصار . وقوبل قصفه الأولى برد عنيف وبقذائف مماثلة من جانب المدافعين . وكان الأسلوب التكتيكى التى سيتبعه الفرنسيون بعد ذلك هو قصف وتدمير البرج البارز من الفناء المسور الخارجى وقد تم بنجاح ، وأندفعوا بعدة إلى الفناء المتوسط . وكان يوجد أمام الحائط لجانب القلعة الجنوبى بناء يحتوى على دورات المياه فى الطابق السفلى وفوقه كنيسة صغيرة ، وبعملية بحث على طول الخندق المائى عثر أحد الجنود الفرنسيين على نهاية المصرف الآتى من دورات المياه وزحف الجندى من خلال الأنبوبة ليخرج مباشرة تحت نافذة الكنيسة ، وبواسطة حبل أمكنه رفع بعض زملائه ، الذين إندفعوا إلى داخل الكنيسة وهم يصرخون عالياً ، وقد صعقت أفراد الحامية الضعيفة من هول المفاجأه ، ولم يبدوا سوى مقاومة ضئيلة ثم تراجعوا إلى الفناء المسور الداخلى . وبدأ الفرنسيون الآن فى تقويض حائط السور الأخير .

وردت الحاملة بإندفاعها نحو القوات الفرنسية حيث قاموا بطردهم إلى الخارج ، ولكن كانت قاعدة السور قد ضعفت الآن كثيراً . ، وما هى إلا بضع ضربات من المنجانيق القوى حتى تصدع السور وإندفع الفرنسيون من خلال الفجوة التى أنهارت من السور . وبعد قتال طويل ضار إستسلمت الحامية .

وبعد سقوط قلعة « شاتوجيلارد » أصبح من الممكن القول بأن الملك جون قد فقد نورماندى .

الحرب المقدسة

والآن فعلينا أن ندرس الحملات الصليبية ، ففى عام ١٠٧١ وبعد هزيمة البيزنطيين النكراء فى ملازكرت ناشد الإمبراطور الكسيوس الأول البابا مساعدة الغرب . ولكن حتى عام ١٠٩٥ لم يكن ممكناً للبابوية أن تستطيع تحويل إهتمامها بدرجة كافية عن نزاعها مع الإمبراطور الألمانى لكى تستجيب للامبراطور البيزنطى . . وفى ذلك العام دعا البابا أربان الثانى إلى إجتماع المجلس فى كليرمونت ووجه نداءه إلى أوروبا : — « لقد لحق العار بكل العالم المسيحى بعد إنتصار المسلمين فى الشرق ، وتدنست الأرض المقدسة العزيزة على كل قلوب المسيحيين والتى هى بحق ملك للمسيحية ، ومن الواجب انقاذ الأرض المقدسة

وأيضاً المدينة المقدسة بإزالة العار الذى لحق بالمسيحية ، وبالتالى ، فعلى الملوك المسيحيين أن يوجهوا أسلحتهم نحو هؤلاء أعداء الله بدلا من أن يشن الواحد منهم الحرب على الآخر كما يفعلون دائماً .. وعليهم الآن أن يضعوا جانباً تأنيب العالم المسيحى ويبدأوا فى تحطيم قوة الهجوم الإسلامى .. والحرب التى أدعوكم إليها هى حرب مقدسة ولتكن صرخة المعركة « تلك أرادة الله » وهؤلاء الذين يفقدون أرواحهم سينعمون بالجنة وستمحى عنهم جميع خطاياهم » .

وقد تقرر أن يبدأ الجيش المسيحى تحركه فى يوم رفع المسيح إلى السماء فى العام التالى تحت قيادة أدهمار أسقف لبوى ، ولكن لم توضع خطط مفصلة فالرب سوف يوفرها .

ولقد كانت هناك إستجابة هائلة لنداء البابا .. وفى عام ١٠٩٦ أرسلت فرقاً من جميع أنحاء أوروبا الغربية إلى الأراضى المقدسة عدا ألمانيا التى كانت غارقة فى حرب أهلية . وقادا كل من ريموند (كونت طولوز) وأدهمار أكبر قوة ، وخرجت من جنوب فرنسا .

بينما قادا كل من هوج[1] وروبرت[2] القوة المشتركة من شمال فرنسا . ومن منطقة الراين خرجت قوة ثالثة وقادها جدفرى (دوق اللورين الأدنى) وأخوه بالدوين ..

كما خرجت قوة رابعة من جنوب إيطاليا يقودها بوهمند (ابن روبرت جسكارد) ومعه ابن عمه تانكرد .

وفى أواخر ربيع عام ١٠٦٧ عبر البوسفور مابين ٢٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ جندى صليبى .

لقد كان هناك أسباباً عديدة للاستجابة إلى الحركة الصليبية ، فمنذ ١٠٠ سنة وربما

---

(١) كونت فرماندروز وشقيق ملك فرنسا .

(٢) دوق نورماندى ابن وليم الفاتح . «المعرب»

أكثر أخذ تعداد السكان فى غرب أوروبا فى الإزدياد .. ولم يعد الإنتاج الزراعى قادراً على مسايرة ذلك الإزدياد ، ووصل القلق الناتج عن ذلك إلى ذروته بعد مجاعة عام ١٠٩٤ ، وأكثر من ذلك فقد تحدد عدد قطع الأرض التى يمكن تقديمها كممتلكات إقطاعية . وزاد استياء وضيق الأبناء الشبان لطبقة النبلاء من هذا الموقف وأحسوا أنهم يريدون المغامرة للاستيلاء على أرض جديدة مع تطلعهم إلى حياة تمنحهم الإثارة بدلا من الملل الذى يعيشون فيه ، وتطوع الفلاحون أملا فى كسب حريتهم من العبودية المفروضة عليهم . ورأى الكثير من الآخرين ، وعلى الأخص تجار البندقية وجنوا فرصة سانحة لتحقيق الربح التجارى الذى سيأتى إما من تفكك الإمبراطورية البيزنطية أو من بيع الإمدادات للجيوش الصليبية .

ولكن الحافز الأول للأجيال الأولى للصليبيين كان بدون شك حافز الدين ، ولقد شهد القرن ١١ عودة الحياة إلى الرهبانية والبابوية والحج . وفى القرن ١٢ تغلغل هذا الحماس الدينى خلال السواد الأعظم من أهل أوروبا . وأوجد الشعور بأن أعداء المسيحية يدنسون الأرض التى شاهدت حياة المسيح حماساً متقداً للحرب الصليبية بالإضافة إلى أنها كانت فرصة للحج إلى الأراضى المقدسة .. وقد تبلور هذا الشعور فى الأنشودة والتى كانت رمزاً للحملة الصليبية الثانية .

« لقد حدد الرب لك يوماً تكون فيه عند الرها .. وهناك فلن ينجو من الخاطئين إلا من سيضرب بقوة ، ويخدمه حيث يطلب منه الخدمة » .

ولقد كانت طريقة القديس برنارد فى تجنيد المتطوعين الجدد هى أن يعظ فى صوت مدو قائلا « إنى أخبركم ... والرب يختبركم » .

ومنذ عهد شارلمان ازداد إرتباط الحروب الأوروبية بالعقيدة الدينية وتلوثها بالحيرة والشك .

وقد نشبت أكثر من معركة فى عصر الكارولنيجيين فى جوغريب من الإثارة الدينية .

وقد عانى الدوق ويليام مصاعب جمة حتى حصل على موافقة البابا على غزوه لإنجلترا . كما حج هارولد قبل معركة هاستنجز إلى طريق ولتام المقدس ، وخلال المعركة نفسها ارتدى ويليام حول عنقه بعض عظام من رفات القديس بايو ، بينما قاتل أدو أسقف بايو مستخدماً مقرعة بدلا من السيف ، لأن من المفروض ألا يسفك القسس الدماء .



اللوحة رقم (١٧)

حدود الممالك العربية والصليبية والبيزنطية

الحملة الصليبية الأولى (أنظر اللوحة رقم ١٧)

لم تكن « معاهدة الرب » سوى محاولة تؤيدها الكنيسة من مدة طويلة لتنظيم والحد من أعمال السلب والنهب فى الحروب ولحماية النساء والفلاحين ورجال الدين والحجاج بالإضافة إلى المزارع والمبانى . وظهرت هذه المعاهدة فى أول الأمر فى جنوب فرنسا عام ٩٩٠ وكان يؤيدها نظام الرهبنة ذو النفوذ القوى . وفى عام ١٠٢٧ حرم المجمع الكنيسى فى إلن كل الحروب فى عطلات الأسبوع . وفى عام ١٠٤٢ أدخل ويليام تلك المعاهدة إلى نورماندى ثم حملها النورمانديون بدورهم إلى كثير من أجزاء أوروبا ، وألتقط المجلس البابوى الفكرة ، وقرر بعد عدة إجتماعات وضع تنظيمات وتعليمات مفصلة ومتقنة . وعلى سبيل المثال فى القرن ١٢ قرر الذين قبلوا الهدنة عدم القتال فى ثلاثة أرباع العام وذلك خوفاً من أن تحرمهم الكنيسة من رضاها ولكنها لم تكن فى مجموعها سارية إلا فى المناطق التى للكنيسة سلطان عليها .

وعلى كل لم تكن هذه المعاهدة ذات تأثير واسع النطاق ، إلا عندما أصبح الملوك على درجة كافية من القوة لفرض مايقررونه هم فى سبيل السلام ، وبذلك أصبحت جهود الكنيسة ذات شأن عظيم .

وقد نجحت الحملة الصليبية الأولى ، بالرغم من عدم وجود علاقات طيبة مع البيزنطيين ولكن هذا النقص لم ييأسهم . وتقدم الصليبيون عبر آسيا الصغرى حيث قاسوا فى صبر وجلد هائلين عناء الجوع والعطش ، نتيجه لعدم كفاءة نظام الإمداد . وبعد هزيمة الأتراك عند دور دوريلايرم استولى الصليبيون على أنطاكية فى يونيه عام ١٠٩٨ وهناك أصيبوا بالدوسنطاريا كما حاصرهم الأتراك . وفى ذلك الموقف الحرج ترك القادة الصليبيون منازعاتهم وتناسوا منافساتهم واختاروا من بينهم قائداً عاماً للقوات الصليبية وهو بوهمند . وكما يقال ، فقد دب فيهم النشاط والحيوية وعادت إليهم القوة بأكتشاف الرمح المقدس [1] . وعلى

---

(١) يقال أن هذا الرمح الذى نفذ من جنب المسيح . « المعرب »

الفور خرجوا من حصارهم وهاجموا الأتراك يعاونهم القديس سان جورج وبعض القديسين الآخرين الممتطين جيادا بيضاء فأستطاعوا هزيمة الأتراك . وفى أوائل يناير ١٠٩٩ واصل الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس . وفى يولية وبعد حصار دام خمسة أسابيع استولوا على المدينة ، وذبحوا جميع سكانها ، وبشكل عام لم يقابل الصليبيون حتى ذلك الوقت بمقاومة فعلية من المسلمين ، فقد كان من حسن حظهم أن أعدائهم المسلمين كانوا منقسمين على أنفسهم كما أنه فى ذلك الوقت ، كان خليفة مصر الفاطمى والذى يتبعه بيت المقدس ، يخشى أن يهاجمه الأتراك السلاجقة .

الرهبان المحاربين

وبعد أن أنهى الصليبيون مهمتهم بنجاح ، تحتم عليهم الدفاع عن الأراضى المقدسة ، ولكن الكثير من قادتهم ومعهم أتباعهم تركوا الجيش الصليبى الرئيسى ، وأعلن بوهمند نفسه أميراً على انطاكية ، بينما منح البعض الآخر أنفسهم لقب كونت وعينوا أنفسهم كونت للرها وطرابلس ، وفى عام ١١٠٠ أصبح بولدوين ملكا على القدس . وفى الحقيقة كانت هذه الولايات اللاتينية كما كانت تسمى ضعيفة وخاصة فى الدفاع عنها نتيجة لعودة الجزء الأكبر من الفرق الصليبية إلى بلادها بعد انتهائهم من حج بيت المقدس ، ووجد بولدوين نفسه مسئولا عن الدفاع عن بيت المقدس وليس معه سوى ٣٠٠ فارس فقط . ولم يجر تدعيم واستكمال الجيوش الصليبية بالمرتزقة إلا بعد الحملة الصليبية الثانية . وفى المراحل الأولى جرى شراء الدعم والمعاونة من الأسطول البندقى والجنوى للمحافظة على المدن الساحلية وإبقاء الإمداد مفتوحاً إليها . وقد زاد عدد الجيش الصليبى بعد إنشاء نظام الرهبان المحاربين ، وهم فرسان مستشفى القديس يوحنا (عام ١١١٣) وفرسان المعبد (عام ١١١٩) .

وقد أنشأ نظام فرسان المعبد[1] الفارس بورجندى « هيودى بايان » وقد تعهد بحماية الحجاج الذين أندفعوا أفواجاً إلى بيت المقدس .

---

(١) فرسان المسيح الفقراء ومعبد سليمان « المعرب »

وأقسم هؤلاء الفرسان على أنفسهم أن يعيشوا فى طهارة وفقر وطاعة طبقاً لتعاليم القديس بندكت ، وأن يقاتلوا بروح نقية . وعندما أيدهم القديس برنارد انضم إليهم سريعاً كثيراً من المتطوعين ، كما لاقوا مساندة رسمية من جميع أجزاء أوروبا . وهؤلاء هم الذين قدموا الأبطال المسيحيين الذين برزوا فى جميع المعارك الصليبية التى نشبت فى القرن ١٢ ، ولكنهم تزايدوا فى القرن ١٣ بدرجة كبيرة الأمر الذى أدى إلى تناقص شعبيتهم . وبناءاً على ذلك ، فى عام ١٣١٢ ألغى البابا كلمنت الخامس هذا النظام . أما الفرسان التيتنيون[١] فقد كتب لهم البقاء حتى القرن ١٩ .

القلاع الصليبية فى فلسطين (أنظر اللوحة رقم ١٧)

لقد تحتم على الصليبيين أستنباط استرانيجية تتلاءم مع ما يعانونه من نقص فى القوة البشرية، ولذلك قرروا تجنب المعارك المفتوحة على قدر الإمكان والاعتماد على الحصون بدرجة فاقت اعتماد الغرب عليها . وقبل كل شيء كان من الواجب أولا إنشاء علاقات طيبة مع السكان المحليين . وكان هؤلاء معتادين تماماً على التغييرات المستمرة التى تتم فى حكامهم ، وبالتالى كانوا مستعدين لأن يكونوا رعايا مطيعين بالرغم من الاختلاف فى الدين . وكانت الولايات اللاتينية مشابهة لتلك التى أنشأها الغزاة النورمانديين فى انجلترا ، وهى حكم إقطاعى بواسطة أرستقراطية عسكرية ترتكز على القلاع . وتم اختيار كثير من أماكن القلاع الصليبية مثل تلك التى بنيت على الساحل ، لأغراض إدارية وإقتصادية واجتماعية أكثر منها لأسباب استراتيجية . ولم يكن هناك محاولة للدفاع بقوة عن الحدود على الجبال اللبنانية أو على نهر الأردن ، فقد كان معروفاً أن القلاع ما هى إلا مجرد قواعد أو ملاجىء للانسحاب إليها ، وليست مدن محصنة على الحدود لمنع تقدم العدو .

وفى الواقع ترك الطريق الجبلى من دمشق وعبر الأردن عند جنوب بحيرة طبرية بدون دفاع . ولكن قام الصليبيون أخيراً ببناء عدد كبير من القلاع على طول الحدود مثل كرك معاب وكرك الفرسان وبوفرت ومونت فيراند .

وخلال مدة خدمتى فى فلسطين عام ١٩٣١ ، ثم مرة أخرى عام ١٩٣٨ زرت العديد من مواقع القلاع الصليبية . وكم كان مثيراً أن هذه القلاع كانت الواحدة ترى التى تليها . وقد

---

(١) وهو نظام مشابه لفرسان المعبد وقد أنشأ عام ١١٩١ وكان نشاطهم الرئيسى فى شرق ألمانيا « المعرب »

استخدمت الإشارات المرئية للمواصلات ، ومن الواضح أن الرؤيا المتبادلة اعتبرت إحدى العوامل الهامة . وقد قرأت أن حصن الكرك عندما حاصره صلاح الدين عام ١١٨٣ كانت الحامية تتصل ليلا بالإشارات النارية عبر البحر الميت مع برج الملك داود فى بيت المقدس ، أى على مسافة ٥٠ ميلا ، كما استخدم الحمام الزاجل فى حمل الرسائل بين القلاع .

أما قلعة حصن كرك الفرسان والتى آلت إلى فرسان المستشفى بعد عام ١١٤٢ ، فكانت من أروع القلاع تحصيناً ، فقد كانت شاذة فى حجمها وقوتها وكتب عنها سيدنى توى قائلا : « يقع الحصن فوق تل حاد الميل من جهة الشرق ، والغرب والشمال ، بينما يتدرج الميل فى الجانب الجنوبى ، وأحيط الحصن بخندق مائى ثم أحيط بخطين من الأسوار القوية المزودة بالأبراج ، وطوقت الأسوار جناحين من المبانى بينما يسير الجناح الداخلى مع الارتفاع الحاد للتل ولذلك فهو أعلى كثيراً من الجناح الخارجى . وتسيطر الأبراج والشرفات على كل التحصينات » .

صلاح الدين يوحد مصر وسوريا (أنظر اللوحة رقم ١٧)

إذا ألقينا نظرة على نجاح الصليبيين فى أول الأمر ، لنجد أنه راجعاً إلى تفكك العرب أكثر من رجوعه إلى شجاعة وإيمان الصليبيين. وفى عام ١١٢٧ بدأ الفشل يحيق بالصليبيين عندما خرج « عماد الدين زنكى » لتوسيع قوته فى سوريا مستوليا على الرها عام ١١٤٤ .

وقد كانت كارثة وصل مداها إلى الغرب ، فقام كل من لويس السابع ملك فرنسا والإمبراطور كونراد الثالث بالاستجابة لنداء القديس برنارد عام ١١٤٧ للقيام بحملة صليبية ثانية ، وقد فشلت تماما هذه الحملة . ويرجع ذلك لعدم إقتناع الصليبيون الجدد بنظام الولايات اللاتينية الدينى المتسامح علاوة على الاختلاف بين القادمين والمستوطنين على استراتيجية الحملة . فقد حث الصليبيون المستوطنين على الهجوم على « نور الدين » خليفة عماد الدين زنكى والذين رأوا فى قوته المتصاعدة خطراً جسيما . ولكن صليبيوا الحملة الثانية اقترحوا مهاجمة دمشق بالرغم من أن أميرها كان يتخذ موقفاً ودياً مع الولايات اللاتينية وعلى عداء

فى نفس الوقت مع نور الدين.

وفى النهاية نفذ الهجوم على دمشق بقوات ضعيفة مما أدى إلى فشله . وبعد هذا عادت معظم قوات الحملة الثانية إلى بلادها وعاد نور الدين مرة أخرى إلى أعماله الهجومية .

وفى عام ١١٥٤ استولى على دمشق ، وفى ١١٦٩ تحققت له السيطرة على مصر . وقد فشل الصليبيون فى تقدير الأهمية الاستراتيجية فى السيطرة على مركز المواصلات الصحراوية الممتدة شمالا وجنوباً فى شرق الأردن ، وهذا كان سيؤدى إلى منع توحيد قوى مصر وسوريا .

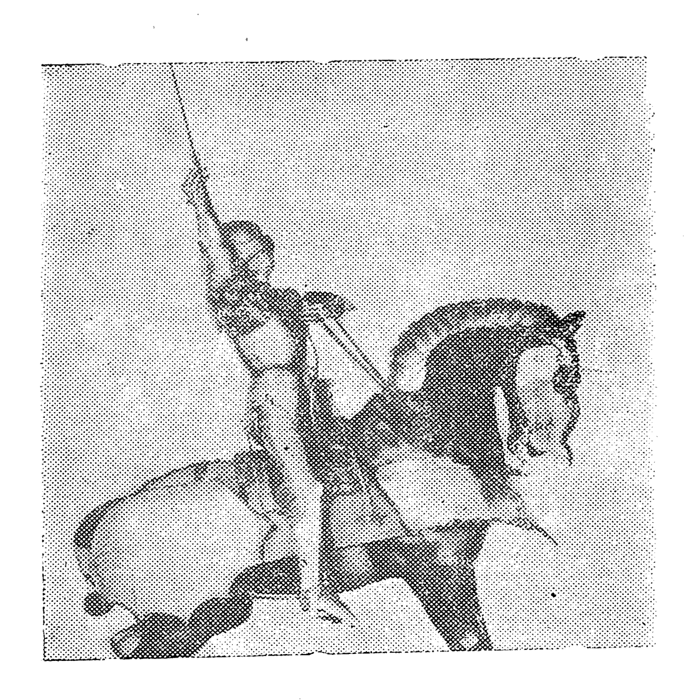
وفى عام ١١٧٤ أصبح صلاح الدين بعد موت نور الدين ملكا على مصر وسوريا . لقد كان صلاح الدين حاكما قديراً للغاية ومسلماً تقيا واستراتيجياً بارعاً ، فقد قام ببناء قوته العسكرية تلقائياً فى نظام وترتيب سليمين . وأعد شعبه للحرب المقدسة بتوجيه المواعظ الدينية القديرة . ومن هنا أصبح الصليبيون يواجهون تهديداً حقيقياً وخطراً أكثر من أى وقت مضى ، لأن أعداءهم فى الشمال والجنوب أصبحوا يعملون بخطة مشتركة ، كما تعرضت خطوط الإمداد الصليبية للخطر من أسطول صلاح الدين المصرى .

وفى تلك المحنة بدلا من أن يوحد الصليبيون صفوفهم ، بدأت قادتهم فى النزاع والتشاحن وخاصة ريموند (كونت طرابلس) وريجنولد (أمير قلعة الكرك) الذى وصل تشاحنهما إلى أقصى مدى ، علاوة على بعض العداءات الصغيرة بين صفوف الصليبيين . وعلى كل لم يبدأ صلاح الدين هجومه إلا فى عام ١١٨٧ عندما أثاره ريجنولد بنهبه لإحدى قوافل المسلمين ، وعندئذ زحف صلاح الدين عبر الأردن مدمراً قوة من الفرسان قوتها ١٣٠ فارساً، وكانت تضم صفوة فرسان المعبد ، ثم قام بعدها بحصار طبرية ، وأثار ذلك كل من ريجنولد وجاى دى لوزينان اللذان حثا الصليبيين على الزحف لتحرير القلعة المحاصرة . أما ريموند فقد اعترض قائلا بأن مثل هذا الزحف لن يؤدى إلا إلى السقوط فى فخ صلاح الدين ، لأن الصليبيين سيكونون أقل عدداً من أعدائهم بالإضافة إلى أن هذا الوقت هو أحر وقت فى السنة،

وسيعانون كثيراً من نقص المياه . وكان ريموند يفضل بقاء الصليبيين فى موقف دفاعى حتى تصبح ظروفهم ملائمة وفى ذلك الوقت يقوموا بالهجوم ، ولكن أهملت نصيحته الحكيمة . وفى ٣ يوليه عام ١١٨٧ قاد جاى دى لوزينان القوات الصليبية إلى أعظم كارثة وذلك فى معركة حطين .

الانسحاب المخادع

لقد ذكرنا قبل ذلك أن النقص فى القوة البشرية عند الصليبيين أملى عليهم استراتيجيتهم كما كانت الفرنسان تمثل العمود الفقرى لقواتهم سواء منهم النزلاء الإقطاعيين أو أعضاء المنظمات الدينية العسكرية ، ونتيجة للنقص فى الفرسان تم استكمالهم بقوات من المرتزقة أو من المسلمين المرتدين عن دينهم . وقد تطور كفاءة فرسان القرن ١٢ إلى حدما منذ عام ١٠٦٦ ، وأصبحت دروعهم أكثر إحكاماً وإتقاناً ، ووصلت القمصان المعدنية



الفارس المدرع

حتى الركبة ، كما أن أطراف الجسم أى الأيدى والأرجل ، أصبحت تحميها قطع من الدروع على شكل شبكة ، كما أصبحت القلنسوة المعدنية ضيقة لحماية الرقبة . كما أن الخوذات المخروطية الشكل قد حلت محلها الخوذات الضخمة على شكل القدور وكانت هذه الخوذة على شكل أسطوانة حديدية مسطحة من أعلاها . وغطت الخوذة كل رأس الفارس مع وجود فتحات لتمكين الرؤية والتنفس . أما حصان الفارس فكان من فصيلة خاصة يطلق عليه اسم « ديستربيه » ويحميه أيضاً رداء معدنى أو قماش سميك يشبه الألحفة ، كما زاد طول الرمح زيادة طفيفة .

وإذا نظرنا إلى القوة الضاربة الرئيسية للقوات الصليبية لوجدنا أنها تتمثل فى صدمة هجوم الفرسان الثقيلة بالرغم من أن هجوم الفرسان الثقيلة كان لا يزال يجمع بين عدة هجمات فردية ولم يتطور بعد إلى الهجوم فى حشد .

أما جنود المشاة فكانوا يقومون بأعمال المعسكر والحصار . وأهم مجموعات المشاة كانت مجموعة رماة السهام وخاصة حملة النشاب المرتزقة من شمال إيطاليا .

أما القوة الرئيسية فى الجيوش الإسلامية فتمثلت فى رماة السهام الراكبة وكانوا أخف تجهيزاً من الفرسان الصليبية بالإضافة أن خيول المسلمين كانت أسرع وأسهل فى الاستخدام وكان الرامى الراكب بجانب قوسه يحمل درعاً صغيراً مستديراً ورمحاً قصيراً وسيفاً وهراوة .

وكانت المشكلة الرئيسية لدى المسلمين هى عدم وحدة القيادة ، وعلى سبيل المثال فشل الأمراء والقادة المسلمون فى عام ١١٠٤ فى استغلال نصرهم عند أران نتيجة لتشاجرهم على الأسلوب مع تناحرهم على غنائم المعركة . وقد كان صلاح الدين هو القائد الأول بدون جدال لقوات المسلمين .

وكان المسلمون يقومون عادة بالمبادأة بالهجوم التكتيكى مستغلين تفوقهم وخفة حركة فرسانهم الخفيفة وأثناء تقدم الصليبيين كان المسلمون يرهقونهم بالهجمات المتكررة ، وعند الالتحام بهم فى المعركه يطوقونهم من كل جانب .

وكما ذكرنا قبل ذلك أرتكزت القوة الهجومية الصليبية على الفرسان الثقيلة ولذلك استخدم المسلمون تكتيكات المراوغة ليتجنبوا التعرض لصدمة الخيالة الثقيلة وأيضاً لتفتيت تماسك عدوهم . وشملت هذه التكتيكات اتخاذ التشكيلات المفتوحة والمرنة غير المنظمة مع المحافظة على البقاء على مسافة معينة من العدو تمكنهم من القيام بهجوم مفاجىء فى اللحظة المناسبة . وكانوا يقومون بعمليات إنسحاب خداعية ، وفى بعض الأحيان كانوا ينسحبون لايام وذلك بغرض جذب الصليبيين فى النهاية إلى الأراضى الوعرة والضيقة لاستنزافهم وإرهاقهم ثم ينقضون عليهم بعد ذلك .

وقد حدث مثل هذا ضد قوات لويس السابع أثناء تقدمه فى أسيا الصغرى ، فقد نصب المسلمون الكمائن مع القيام بأعمال القناصة طوال تقدمه .

ولما كانت أقواسهم ليست قوية بدرجة كافية تمكنها من اختراق دروع العدو فكانوا عادة يوجهونها إلى خيل العدو .

أما التكتيكات الصليبية والتى وضعها وطور معظمها بوهمند خلال الحملة الصليبية الأولى

فقد كانت فى مجموعها تكتيكات دفاعية ، وقد صممت للرد على تكتيكات المسلمين . وقادت الأفكار العسكرية والتجارب البيزنطية إلى تغييرات معينة فى التكتيكات الفطرية الغربية ، وعلى سبيل المثال فقد روعى الحرص واليقظة أثناء المسيرات والحذر والاهتمام أثناء التقدم والفتح للمعركة لتجنب التطويق أو المفاجأة فأصبحت القوةالصليبية تتحرك مع وجود حرس قوى على الأجناب والمؤخرة ، ويتكون من رماة السهامالذين يقومون بتغطية صفوفالفرسان حتى يحين اللحظة المناسبة لينطلق هؤلاء الفرسان بهجومهم .

وتكتيكات المضايقة التى اتبعها المسلمون كانت من أبغض ماعانى منهالصليبيون ، ولكن لم يكن من السهل كبح الفرسان الصليبية من القيام بعمليات فردية متهورة ، وكان منع ذلك ضرورياً ، لذلك وضع فرسان المعبد عقوبات قاسية على أى فارس يترك الصفوف بدون أوامر . وبالرغم من ذلك لم يستطع ريتشارد قلبالأسد أبان الحملة الصليبيةالثالثة عام١١٩١ فى معركة أرسوف من منع فرسان المستشفى من الهجوم قبل الأوان . وعادة كان الصليبيون ينجحون عندما يكون النظام مستتباً مع وجود تنسيقوتعاون بين المشاة والفرسان . ولكن بصفة عامة كانوا يتحاشون خوض المعارك المفتوحة التى كان عددهم فيها أقل من عدد عدوهم .

وعلى أى حال ، فكان المسلمون عادة يوقفون حملاتهم فى بداية الشتاءولذلك كان هناك بعض الأمل فى إمكان دفعهم بعيداً . ومع ذلك فقد كان من الأمور السيئة للروح المعنوية السماح للمسلمين باكتساح المناطق المحيطة بالحصون الصليبية .

معركة حطين

وبعد قرن من التجربة طور الصليبيون أخيراً مبدأ سليما للحرب ضد المسلمين . ولكن فى معركة حطين ألقى جاى دى لوزينان بالخبرة والعقل السليم جانباً ، لكى يقوم بإنشاء جيش يتكون من ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ فارس محلى خفيف ، و١٠٫٠٠٠ من المشاة ، فقام بتجريد جميع الحصون من قواتها الرئيسية وبذلك ترك قوات قليلة وضعيفة بالحصون ، كما أهمل الاستراتيجية المتبعة فى تجنب المعارك المفتوحة والبقاء بالقرب من الحصون . وقاد

جاى جيشه إلى تلال جبل الجليل الجرداء والتى ينعدم فيها الماء حيث قبع صلاح الدين ومعه ٢٠,٠٠٠ رجل .

وعندما أبلغ صلاح الدين عن تقدم جيش جاى ، أرسل إليه وحدات خفيفة مهمتها مناوشة العدو والبدء فى مضايقته وإنهاكه .

وبدأت أولى الهجمات الإسلامية فى قيظ النهار . وبعد قليل أصاب الصليبيون الظمأ بعد أن فقدوا جميع الماء الذى يحملونه ، وأصابهم التعب ولذلك فقدوا تماسكهم ، وبدأت طليعة جيشهم تتقدم ببطء وضعف ، ولكن القوة الرئيسية للجيش الصليبى قد فقدت الترتيب المتماسك الهام لنظام السير . وأخيراً أصبح حرس المؤخرة ومعظم قوات المنتصف محاصرين بجحافل من حملة الأقواس المسلمين . فى ذلك الوقت كانت القوة الرئيسية للجيش الصليبى[١] قد أصبحت منهكة وعسكروا على ميول أحد التلال والذى يوجد على قمته نتوئين ويعرف هذا التل بإسم « قرون حطين » وهناك قضوا ليلة لم يتذوقوا فيها طعم النوم علاوة على عدم وجود ماء لهم أو لخيولهم .

فقد استمر المسلمون فى قصفهم بوابل من السهام ، مع الاستمرار فى مضايقة أعصابهم بالقيام بالسخرية منهم بصوت عالى مع إشعال النيران فى الأعشاب والأشجار الصغيرة المحيطة بهم مما زاد الدخان الخانق من متاعب الصليبيين .

وفى الصباح كان لا يزال صلاح الدين رافضاً الاشتباك مع الصليبيين ، واستمر رماته[٢] فى أمطار العدو وبدون توقف . وفى حالة اليأس وبتفكير طائش قرر جاى ، كمحاولة لوضع نهاية للعذاب الذى يقاسيه مشاته ، أن يطلق فرسانه فى هجوم على المسلمين ، ولكن لم يتحقق من هذا الهجوم أى شىء . وعندما تفهمت قوانه الموقف على حقيقته بدأ الفزع يتطرق لبعض الجنود ، وبدأت بعض المشاة الصليبية القيام بتصرفات مذعورة ، ولكن جاى أوقف ذلك الإنهيار برفعه عاليا صليب الولاء ، وقام الفرسان بمعاودة الهجوم وبدا لفترة وكأن المسلمين

---

(١) وهم فرسان المعبد والمسلمين المرتدين . « المعرب »

(٢) وصل لرماة المسلمين ٧٠ جملا محملة بالسهام كأمداد لهم . « المعرب »

يواجهون المتاعب ، ولـكن فرسانهم تدخلت واشتبكت فى القتال بعد حصارها للفرسان وتجمعت الفرسان الصليبية المطوقة حول صليب الولاء فى ذلك الوقت قام المسلمون بتوجيه الضربة القاتلة . وقام ريموند مع بعض الفرسان الذين لم تجرح خيولهم بهجوم يائس لفتح طريق للهروب خلال قوات المسلمين . ولـكنهم وقعوا فى قبضة المسلمين وأيضا صليب الولاء .

اختطاف ريتشارد قلب الأسد

وحتى الآن فـكل ما حققه صلاح الدين هو تدمير القوات الصليبية .

وفى نهاية ١١٨٧ كانت كل مملـكة بيت المقدس تقريباً فى يده . . وسقطت المدينة نفسها فى أكتوبر من ذلك العام ، وعومل سكانها معاملة غاية فى الرحمة . أما فى الغرب ، فقد ارتفعت فوراً النداءات بحملة صليبية فورية ولقيت تلك النداءات بعض النجاح وفعلا خرج الإمبراطور فردريك باربروسا من ألمانيا عام ١١٨٩ ولـكن المسلمون قضوا على معظم جيشه فى آسيا الصغرى .

أما فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا فقد وصـلا إلى الأراضى المقدسة وأعاد ريتشارد الإستيلاء على عـكا ويافا ولـكنه اضطر للعودة قبل بيت المقدس . ويوضح الشجار المستمر بين زعماء الصليبيين درجة الإنحطاط والإنحلال التى حدثت فى الفـكرة الصليبية . . . هذا بالإضافة إلى تصرف الإمبراطور هنرى الذى خطف ريتشارد وهو فى طريق عودته إلى بلاده والاحتفاظ به كرهينة للحصول على الفدية . وأيضاً فى عمل فيليب الذى انتهز فرصة غياب ريتشارد وأغار على نورماندى . ولـكن فى النهاية كانت عقلية البندقية التجارية والتى تستهدف الربح فقط ، هى التى منعت الصليبيين من التقدم أبعد من القسطنطينية .

حتى أنه فى إبريل عام ١٢٠٤ نسى بلدوين الغرض الأســــاسى من دخـوله القسطنطينية وقام بدلا من ذلك بالإستيلاء على العرش وتنصيب نفسه إمبراطوراً .

ولقد كانت هناك حملات صليبية أخرى فى القرن ١٣ ، كما استرد المسيحيون بيت

المقدس ولكن لفترة قصيرة .وفى الواقع أحيا القديس لويس ملك فرنسا (١٢٢٦ — ١٢٧٠) الأفكار السامية للحركة الصليبية بالرغم مما يقوم به الآخرون أمثال الأمبراطور فردريك الثانى وسيمون دى مونتفرت من عدم احترام هذه الأهداف والتقليل من قيمتها أكثر من أى وقت مضى . ولكن القصة معقدة ومتشابكة وتاريخها العسكرى لا يقدم إلا فائدة إضافية قليلة . أما التطورات الحقيقية والهامة فكانت تأخذ مجراها فى ذلك الوقت فى الغرب .

الفصل التاسع

حروب أواخر العصور الوسطى

حرب المائة عام

كانت الحروب خلال أواخر العصور الوسطى فيما بين معركة بوفين (١٢١٤) ومرات (١٤٧٦) هى القاعدة السائدة فى جميع أنحاء أوروبا تقريباً . ولذلك تعتبر هذه الفترة ذات أهمية وفائدة خاصة وذات طابع مثير . فقد تلى تحلل وسقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة قيام صراع فى القرن ١٣ بين البابوية وأسرة هوهنستاوفن الإمبراطورية ، ثم حروب الاستقلال السويسرية والتى خاضتها عصبة مقاطعات أقاليم الغابات الثلاث بعد عام ١٢٩١ . وأيضاً حروب البوهميين[1] والهسيين والتى دارت بين عامى ١٤١٩ و ١٤٣٦ وتوحيد قوة الدولة الإنجليزية بعد قيام إدوارد الأول بفتح ويلز (١٢٧٧ — ١٢٩٥) بالرغم من فشل المحاولة الإنجليزية لفتح اسكتلندا (١٢٩٦ ـــ ١٣٢٨) . وأخيرا جاء الصدام الكبير بين فرنسا وانجلترا ، وقد عرفت أعمال الغزو الإنجليزى التى حدثت بين عامى ١٣٣٧ ـــ ١٤٥٣ بإسم حرب المائة عام .

ولقد كان التأثير السياسى النهائى لكل هذه الحروب هو بقاء ألمانيا فى حالة أكثر تفككا مع فقدان روما للكثير من نفوذها المعنوى والدينى بينما عبرت انجلترا وفرنسا إلى مابعد مرحلة الإقطاع التى كانت تميز مجتمع العصور الوسطى لكى تصبحا من الدول القومية[2] الرائدة فى أوروبا .

ومن وجهة النظر العسكرية كانت هذه الحروب على جانب عظيم من الأهمية ، لأن المائة عام ما بين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ كانت حقبة ثورية فى تاريخ فن الحرب . فقد ترك كل من

---

(١) الاسم مشتق من بوهيميا أى انتسابهم إليها .

(٢) وهى الدولة المكونة من قومية واحدة لا قوميات متعددة . « المعرب »

الفارس ونظام الإقطاع أما كنهما لرجل المشاة والأسلحة النارية ونظام الاحتراف . وأصبح واضحاً من الناحية الاستراتيجية إمكان كسب المعارك الدفاعية بالأسلحة المتوفرة بشرط إغراء العدو على الهجوم ، ولكن لتحقيق النصر فى الحملات كان العمل الهجومى ضرورياً . أما من الناحية التكتيكية فقد انتقلت السيادة إلى أسلحة القذف الجديدة والتى أصبحت هى العامل الحاسم فى المعركة بدلا من الصدمة .

وفى آخر الأمر كان المدفع سيثبت أنه أقوى آلة حربية للسنوات الـ ٦٠٠ التالية . وبالرغم من أن المدفعية كانت فى بداية القرن ١٥ مؤثرة إلا أن القادة لم يشعروا لمدة طويلة بالتأثير الكامل للأسلحة النارية ، وقد تركز الاهتمام فى هذه الفترة على التطور الثورى للمشاة ، وذلك بانتزاع كل من رماة السهام وحملة الرماح من المشاة السيادة على ميدان المعركة من الفرسان الثقيلة التى ظلت تسود الميدان لمدة ١٠٠٠ عام .

لقد أكدت معركة هاستنجز السيادة المطلقة للفرسان الثقيلة والتى كانت قد بدأت منذ معركة أدرنه عام ٣٧٨ .

وأصبحت المشاة سلاحاً محتقراً بين القادة . . ولم يدرك أى قائد فى أوروبا الغربية قبل منتصف القرن ١٣ الدروس المستفادة من الحملات الصليبية والتى أظهرت أن المجموعة التكتيكية المكونة من المشاة والفرسان والتى تم تنسيق عملهما سويا بمهارة لهو أعظم بكثير من أن يعمل كل منهما منفصلا ، وعلى كل حتى ذلك الوقت كان هناك بعض عناصر المشاة المحنكة والمحترفة فى الأراضى الواطئة وفى شمال إيطاليا . ومن الجدير بالذكر أن ويليام استخدم فى معركة هاستنجز حملة الرماح الفلاندريين واستخدمهم أيضاً فيليب أغسطس فى معركة بوفين عام ١٢١٤ ، واستمر حملة الرماح الفلاندريين فى كسب المعارك خلال القرن ١٣ . وعلى أى حال ، ففى ذلك الوقت حل محلهم حملة النشاب من مدن إيطاليا الشمالية وخاصة من جنوا .

وارتدى الجنويون[1] قلنسوة من الصلب وسترة معدنية للوقاية ، واستمر سلاحهم

(١) نسبة إلى جنوا .

(النشاب) فى التطور المستمر حتى نهاية القرن ١٥ ، وعموما فقد استمر النشاب[١] عبارة عن صورة مصغرة للمنجانيق . وقد كان سلاحاً ثقيلا بطيئاً فى التشغيل ولا يعمل فى الطقس الممطر ، ولكن كان له بعض المزايا ، فكان دقيقاً حتى مسافة ١٠٠ ياردة كما يمكن استخدامه بواسطة رجال قليلوا التدريب نسبيا وفى نفس الوقت لا يحتاج لاستخدامه إلى رجل ذى قوة كبيرة مثل القوس الطويل وعموما كان النشاب سلاحاً جيداً وخاصة فى أعمال الدفاع من وراء فتحات الرمى فى الأسوار .

انهيار نظام التجنيد الاقطاعى

وقد تواجدت على مر العصور وحدات ممتازة من المشاة ، ولكن فى العادة لم يحسن استخدامها ، وعلى كل لم تستخدم المشاة فى معظم المعارك الهامة التى حدثت فى القرن ١٣ مثل معركة مارشفيلد[٢] عام ١٢٧٨ ولكن كانت هناك حالات أخرى كان يستخدم فيها طرف واحد من المتحاربين المشاة مثل معركة ليناو عام ١١٧٦ . وبصفة عامة كان المجندون المشاة من الفلاحين الجهلة قليلى الخبرة ولذلك استخدموا فى الأعمال الحقيرة أو كان أقصى ما يمكن استخدامهم فى أعمال المناوشة كما حدث فى معركة بنفنتو عام ١٢٦٦ . ومن الطبيعى إذا قارنا المشاة بالفرسان لوجدنا أنها تفتقر بوضوح إلى خفة الحركة . ولكن من الغريب أن معظم القادة لم يدركوا مقدرة المشاة الدفاعية بالرغم من أن رمح المشاة كان أطول من رمح الخيالة بالإضافة إلى خوف الخيل من السهام .

ففى عام ١٢٣٧ فى معركة كورتينوفا تمكنت وحدات من مشاة حلف شمال إيطاليا المحتشدة معاً من الثبات بعناد وضد الهجوم المفاجىء لفرسان فردريك الثانى الذين لم يتمكنوا من الإنسحاب إلا تحت ستر الظلام .

وعبر التاريخ ، فقد كانت تظهر أحياناً قدرات تكتيكية ممتازة للمشاة ، ومثال جيد

---

(١) يتكون من قوس قوى صغير مركب بالعرض على نهاية جذع شجرة ، وقد صنع القوس فى النهاية من الصلب ، ويجذب إما بواسطة وتر وبكرة أو بعامود له زناد بسيط ، ومن هذا القوس ينطلق سهم قصير مربع من الخشب برأس حديدية ومزود عند نهايته بريش جلدية .

(٢) المعركة التى انتصر فيها رودلف حاكم هاسبورج وأوجد بها السلطة لعائلته فى الداوب والتى استمرت حتى عام ١٩١٨ . « المعرب »

مرة أخرى معركة ليبانو عام ١١٧٦ عندما أعطت المشاة الميلانية بثباتها الفرصة للفرسان اللومباردية لتتجمع وتلحق الهزيمة بصفوة فرسان جيش باربروسا .

وإذا نظرنا إلى الفرسان الثقيلة فسنجد أنهم انقسموا إلى رتبتين الفارس والرقباء[1] .

وفى القرن ١٣ كان الرقباء يركبون خيلاأخف ويرتدون دروعاً أقل من الفارس ولكن فى القرن ١٤ وحدت المعدات والتجهيزات وأصبحت التفرقة فى المصطلح الفنى أمراً اجتماعيا محضاً ، كما أصبح جميع الرجال مجهزين بكل مايمكن أن يجهز به الفارس الثقيل ، وأصبحوا جميعاً طبقة تستخدم للأغراض العسكرية وأطلق عليهم « الفرسان المدججين بالسلاح » . واستمرت الدروع فى تطور مستمر .

وفى عام ١٢٠٠ أفسحت الخوذة المخروطية الشكل الطريق لظهور الخوذة التى تغطى الرأس بالكامل الشبيهة بالندروالتى أضيف إليها جزء متحرك أمامى لتغطية الوجه عام ١٣٠٠ كما استكملت السترة المعدنية الطويلة بمعطف يرتدية الفارس فوق دروعه وأيضاً بثوب محشو سمى « الجمبوز » وبالنسبة للجنود الفقراء فكانوا يرتدون الجمبوز فقط بدون درع معدنى .

وفى هذا الوقت أصبحت الدروع أكثر ليناً ورقة وملاءمة للجسم ، وقد سبق أن ذكرنا أن درع الصدر كان منشأه القرن الرابع ولكن فى عام ١٢٥٠ بدأ الرجال فى تطوير الدروع المعدنية وذلك بأن أضافوا إليها وقايات للركبة والذقن ومرفق الذراع ، ثم بعد ذلك ظهرت الحلة المصفحة الكاملة والتى كانت لاتقاوم حتى لاحظ الفرنسيون فى معركة بنفيتو وجود ١٢٠٠ فارس ألمانى مزودين بالحلة المصفحة وكان زحف هؤلاء لا يقاوم إلا أنهم وجهوا طعنات سيفهم المستقيمة إلى الجزء الذى لا يغطية الدروع وهو الأبط . وقد استخدمت الفرسان الخفيفة مثل البانزراتى الألمانية والهوبيلار الإنجليزية فى المناوشات والاستطلاع فقط ، ولم يكن لها أبداً أى دور رئيسى فى تكتيكات العصور الوسطى .

---

(١) كانوا فى الواقع أتباع وحاشية البارونات والأساقفة ورؤساء الأديرة . « المعرب »

وفى القرن ١٣ كان جيش الفرسان لا يزال يعتمد فى تحقيق النصر على عاملين هما ثقل وزن دروع الفارس وقوته الجسمانية . فكانت مجموعات الفرسان تندفع نحو العدو بقوة مع ضربه بقسوة بالسيوف أو الفئوس الضخمة . واتبع بعض القادة تكتيكا مختلفاً بتقسيم فرسانهم إلى ثلاث فرق ويتوقف النجاح على التوقيت الذى يندفع فيه كل فرقة للهجوم فى أثر السابقة لها .

ومن الأمثلة للقادة الأكفاء فى ذلك الوقت هو سيمون دى منت فورت ، فقد كان حاسماً . سريعاً رابط الجأش ، وقد انتصر فى معركة لويس[1] التى دارت ضد هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ويرجع ذلك لحسن اختياره لأرض المعركة ومفاجأته للعدو مع دفع قوات الاحتياطى فى الزمان والمكان المناسبين . وإذا أخذنا مثالا آخر فسنجد أنه فى معركة بنفنتو عام١٢٦٦ أضعف كلا الجانبين فرسانهم بتقسيمها إلى ثلاثة فرق كل فرقة قوتها ١٠٠٠ فارس بدلا من حشدهم فى مجموعة واحدة ، وبدأت المعركة بمناوشة تمهيدية بين مشاة الجانبين والتى لم تؤثر على سير المعركة الرئيسة[2] ، وبعد ذلك دفع كلا الجانبين فرسانهما تباعا واستطاع شارل هزيمة مانفرد لأنه وضع توقيتاً أفضل لهجوم فرق فرسانه . وقد كان هذا ومثله النظام التكتيكى العادى المتبع فى أوروبا بعد عام ١٣٠٠ ، ولكن فى نهاية هذا القرن ظهرت أفكار وتصورات تكتيكية جديدة فى سويسرا وانجلترا .

أما فى فرنسا فقد ألتزم القادة بجمود بالأساليب التكتيكية القديمة حتى لاقوا الكوارث المتلاحقة .

ومع القرن ١٣ بدأ نظام التجنيد الإقطاعى فى الإنهيار ،بالرغم من أن الجيوش الفرنسية ظلت أساساً تتشكل وتعمل بهذا النظام الإقطاعى حتى حرب المائة عام . وعلى كل أصبحت التعهدات والارتباطات الإقطاعية مضطربة ومشوشة ، ولذلك أصبح النظام الإقطاعى نفسه لا يعتمد عليه لسوء نظامه ، فنجد أن الفرق المكونة طبقاً لهذا النظام بدأت تميل إلى طاعة سيدها الإقطاعى وليس الملك،وأصبحت فترة خدمتها لصالح الملك لاتتجاوز ٤٠ يوما . وكان

---

(١) أدى انتصاره فى هذه المعركة إلى استطاعته إقامة البرلمان .

(٢) معظم سجلات التاريخ العسكرى لم تذكرها . « المعرب »

من الأسباب الرئيسية لانهيار نظام التجنيد الإقطاعى أن المجندين من الفلاحين كانوا غير محترفين فأصبحوا غير أكفاء فى استخدام أسلحتهم .

بالرغم من أن الكثير من الفرسان لم يكن لديهم أى شاغل آخر غير خوض القتال ، ولكن اتباعهم من الفلاحين كان لديهم مشاغل أخرى كثيرة ، الأمر الذى لم يتح لهم إلا وقتا قليلا للتدريب على استخدام الاسلحة . وعلى كل زاد الاعتماد على المرتزقة .. وفى انجلترا كان من دواعى سرور الملك أن سمح لرعاياه باستبدال الخدمة الإقطاعية بدفعهم ضريبة سميت (البدلية) وبهذه الأموال كان يستأجر المغامرين وقواتهم المرتزقة. وتكونت طبقة من المرتزقة فى جميع دول أوروبا من أولاد النبلاء الصغار والذين ليس لهم الحق فى إرث الأرض ومن اللاجئين الهاربين من نظام العبودية ، وفى الحقيقة كان هؤلاء الرجال محترفين متمرسين ومدربين جيداً للعمل والقتال معاً ويخدمون من يدفع لهم أجورهم طوال المدة المتفق عليها. وكثيراً كانوا يمثلون مصدراً كبيراً للازعاج ، لأن معظم المجندين المرتزقة أصلهم من المجرمين ، وعندما يحل السلام تتحول هذه الجيوش الخاصة إلى عصابات من قطاع الطرق . وكان من أحد أسباب عدم شعبية الملك جون أنه جلب إلى إنجلترا حملة النشاب المرتزقة ، وتواجد هؤلاء الوحوش حتى عهد الحاكم التالى . كما أن فرقة روجردى فلور والمعروفة بإسم « الفرقة العظيمة » كانت تتشكل من جماعات المرتزقة التي سرحت فى نهاية الحروب الصقلية وبلغت قوتها أكثر من ١٠٠٠ رجل .

المباراة بين الجنة والجحيم

كان أفضل تدريب على استخدام الأسلحة يتم فى المباريات والمنافسات التى كانت تقام بين الفرسان (التورنامنت) .

وفى القرن ١٣ أصبحت هذه المباريات أشبه بالحروب أكثر من أنها رياضة ، وذلك لأن الفرسان كانوا يسلحون أنفسهم ويقاتلون تماما مثلما كانوا يفعلون فى المعركة الحقيقية . وكان هناك أنواع عديدة من المباريات منها « المثاقفة[١] » حيث يسدد كل فارس رمحه ثلاث مرات ضد الخصم وإذا لم يسقط أحدهما من على حصانه كانا يترجلان ويسدد كل منهما للآخر ثلاث ضربات بالسيف أو بالباطه أو بالمقرعة . ويوجد نوع آخر يسمى « المباراة أو

(١) قتال بين فارسين يهاجمان بعضهما بالثاقف وبالرماح لإظهار الشجاعة والبراعة أو طمعاً فى الجائزة « المعرب »

الدورة » ويتم بنفس الأسلوب المتبع فى « المثاقفة » ولكن بمجموعة من الفرسان .

وكان ويليام الوصى على إنجلترا فى عهد هنرى الثالث والملقب بـ «المارشال» من أشد المولعين بهذه المباريات ، وقضى سنوات عديدة يخوض الواحدة تلو الأخرى ، لدرجة أنه قاتل فى أحدها لمدة ١٤ يوماً محققاً شهرة واسعة عبر شمال فرنسا ومحققا ثروة كبيرة . وفى إحدى المباريات استطاع أسر ١٢ فارساً و ١٠ خيول واحتفظ بهم للحصول على فديتهم . وقد كان للعامة أيضاً مبارياتهم الحربية وتلك إما على شكل مباريات فى القتال بالنبوت[1] أو بالسيف والترس ، أو طعن دمى فوقها دلو[2] من الماء بالرمح . وكانت الحملات الصليبية توصف أحياناً على أنها «مباراة بين الجنة والجحيم » ومع مرور الوقت وإزدياد رخاء الحياة مع إزدياد الجرحى والمصابين فى هذه المباريات ، فقد وضعت لها قواعد وأحكام متقنة ومدروسة

ومع القرن ١٥ أصبحت هذه المباريات أكثر شعبية ولكنها أقل خطورة . فأصبح يفصل بين الفارسين المتقاتلين سور خشبى مع استخدام رماح هشة سهلة الكسر كما صممت السروج بحيث يمكن للفارس أن ينزلق إلى أسفل من عند ذيل الحصان . وحتى مع كل هذا ، ففى إحدى المباريات عام ١٥٥٩ لقى الملك هنرى الثانى ملك فرنسا مصرعه على يد أحد أجدادى النورمانديين ومن الطبيعى كان على جدى أن يهرب بسرعة من البلاد ، ولقد كان ذلك من سوء الحظ . وعلى كل أصبحت المباريات بعد ذلك مهرجانات أكثر منها قتال .

وآخر ماشهد التاريخ من هذه المباريات تلك التى قام بتنظيمها «إيرل أجلينتون» فى عام ١٨٣٩ ، وقد سافر المشتركون إلى ضيعة اللورد فى القطار . وقد كتبت الصحافة عنها تقول : «فى داخل القاعة القوطية انتشرت النساء الجميلات بين الفرسان المدرعين » . ولسوء الحظ منعت الأمطار من تنفيذ الكثير من البرنامج .

الصواريخ فى القرن ١٤

من بداية القرن ١٣ أصبح وضع الفارس الشرعى مرتبطا بفكرة الفروسية ، وقبل

---

(١) سلاح إنجليزى قديم عبارة عن عامود ضخم طوله بين ٦ — ٨ قدم وفى رأسه قطعة من الحديد .

(٢) للتبارى على دقة الإصابة لدرجة لا ينسكب الماء من الدلو . « المعرب »

ذلك كان الفارس مجرد رجل يؤدى خدمة عسكرية مقابل منحه قطعة من الأرض . ولكن إذا رجعنا إلى القرن ١٢ لوجدنا أن الحروب الصليبية والأنظمة التى أنشأت مثل مجموعات فرسان المعبد قد أضفت على عمل الفارس أولا شيئاً من الاحترام ثم بعد ذلك شيئا دينياً ومقدساً . وأصبحت النظرية القائلة بأن الفارس رجلا ذو صفات خاصة من الشجاعة والشهامة ويؤدى شعائر معينة قبل دخوله إلى طبقة الفارس أمراً مقبولا .

واستمرت الطريقة القديمة لمنح لقب الفروسية كما هى وذلك من أجل صالح القتال فى المعركة ، وكان يتم ذلك فى احتفال خاص لمنح الرجل لقب فارس ويطلق على مثل هذا الاحتفال « الاحتضان » ويعنى ذلك أن الرجل أصبح فارساً يمكنه خوض القتال فى ميدان المعركة . وكان المرشح يركع أمام فارس آخر حيث يلمسه بسطح السيف على كلا كتفيه مردداً عبارة التنصيب القصيرة والتى كانت عادة تأخذ شكل الموعظة أو النصيحة . ولكن الآن أصبحت هناك طريقة أكثر اتقاناً وتفصيلا ، ويصف سيلدون هذه الشعائر قائلا : « كانت احتفالات منح ذلك الشرف نوعين (الرسمية) و (المقدسة) ، فالرسمية تتمثل فى احتفالات التنصيب وفيها يتسلم الفارس الجديد الأردية والأسلحة ومهمازى للخيل وغيرهما ، أما المقدسة فتتمثل فى الصلوات المقدسة التى تتم فى الكنيسة قبل منح المرشح لقب الفارس رسمياً » .

وتتضمن الاحتفالات السابقة أيضا صلوات المساء وتسلم الأسلحة من خدام الكهنة فى الكنيسة ، والقسم على حماية كل ماهو ضعيف أو طيب أو مقدس . وقد كتب جون سالسبورى : —

« لأى غرض أقيمت الفروسية ؟ أقيمت لحماية الكنيسة وأخذ العهد الأخلاقى بحماية الفقراء والمحافظة على السلام وإراقة الفارس دمه فى سبيل مواطنيه » .

ويعتبر الوصف الذى أورده سالسبورى للفرسان وصفاً رومانتيكيا ، أما أنشودة رولان فقد كانت أكثر واقعية فى التعبير عن الصفات التى تجعل الفارس مثاليا ، وهى فى الحقيقة قصة ممتازة تصور الخيانة والبطولة وتؤكد فضيلة البسالة الشخصية والإخلاص للرفاق والثقة فى مساعدة القديسين . وكان ذلك أفضل تعبير عن روح الفروسية والذى يعكس مدى

الفخر والاعتزاز لما حققتهالفروسية لأوروبا مع حلول القرن ١٣ . فقد حققت الفروسية ثبات الحدود ونقاء النظام السياسي وإمكانيات التقدم الإقتصادى والتى كانت نتيجة للأمان ، وعلى كل كانت الفروسية قوةدفع للأفضل ، فقد أشعرت الطبقات العليا بأنه من الضرورىوجود مستوى من الأمانة والأخلاق لديهم كشيء يعادل امتيازاتهم .

ومن تطورات القرن ١٣ظهور شعارات النبالة ، وقد تطور هذا الأمر مع ظهور الخوذة الكبيرة التى تخفى وجه المقاتل بالكامل ، مما جعل من الضرورى أن يحمل الفارس علامة مميزة . واتخذ الفرسان شعارات متنوعة وكانت ترسم على دروعهم أو تطرز على معاطفهم (عباءاتهم) ، كما وضعت شارات زخرفية فوق قمة الخوذ .

وكان ريتشارد قلب الأسد أول ملك يرسم شعار إنجلترا[1] وكان هذا النظام مفيد فى الإرشاد والتنظيم لأن أتباع كل فارس كانوا يتجمعون حول شعاره أو رايته .

ويمكن القول أن أخطر تطور فى تاريخ الحرب كان فى اختراع بارود المدفع ، ولكن عندما نشرت المعادلة الأصلية لتركيب البارود ، مرت على العسكريين دون أن يلاحظونها . وعلى كل فغير معروف بالتأكيد المكتشف الأول للبارود أو الذى فكر فى استخدامه كقوة للقذف من أنبوبة ، وأيضا غير معروف متى وأين استخدمت المدافع الأولى فى القتال؟ وأول من سجل معادلة تركيب البارود فى العالمالغربى هوالراهب الإنجليزى «روجر بيكون» فى كتاب له عام ١٢٦٠ . والمعادلة عبارة عن : خاط ٧ أجزاء من الملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) + ٥ أجزاء من الفحم النباتى + ٥ أجزاء من الكبريت .

ويمثل هذا الخليطسيمكنك إنتاج لهباساطعاوصوتا مدويا . ولكن خوفا من الكنيسة أخفى بيكون معادلتهبطريقة شفرية مع تغيير حروفها . وقد مر ٥٠ عاما قبل ظهور أول مدفع ، وفى بحث قام به رجل إنجليزى عام ١٣٢٦ ويدعى « والتردى مليويكى » ظهر رسم لأول أنواع المدافع ، وعرفت هذه المدافع بإسم « قارورة القوة » أو « الفازة » ، لأنه كان يشبه فى شكله الفازة ذات جسم متنفخ وعنق ضيق .

---

(١) ثلاثه أسود ذهبية مرسومة على أرض حمراء . « المعرب »

وظهر المدفع فى الصورة مركب على منضدة من الخشب ويعمر بسهم ذا ريش معدنية من النوع الذى تطلقه الأقواس، ويقف بجوار المدفع الجندى الذى يشغله وهو على وشك إطلاقه بدفع قضيبا ساخنا فى درجة الأحمرار فى ثقب محفور لإشعال البارود منه . وقد عثرنا على وثيقة فلورنسية لنفس العام تأمر مجلس المدينة ببحث إنتاج مدافع وقذائف حديدية. وبالتحديد فالمرة الأولى التى أطلق فيها مدفع فى قتال كان فى عام ١٣٢٤ عند « متز » بفرنســـا . وازدادت أصوات المدافع عبر ١٥ سنة التالية ، ومن الأرجح أن إدوارد الثالث استخدم المدفعية ضد الأسكتلنديين فى معركة بيرويك عام ١٣٢٧ ، ولـكن من المؤكد أن الفرنسيين استخدموا المدافع والهاونات فى إطلاق السهام على الإنجليز فى معركة « كويسنوى » عام ١٣٤٠ .

كما استخدم إدوارد المدفعية عند حصاره لـكاليه عام ١٣٤٦ . ولقد كان هناك سلاح نارى آخر هو « ريبولدكوين » ويتـكون من عدة أنابيب معدنية مركبة على نوع من العربات الحربية ، وكان من الممكن إطلاقها معا فى وقت واحد ، ويبدو هذا السلاح وكأنه أحد أنواع بطاريات الصواريخ البدائية ، وهى تشبه ما استخدمه الجيش الـكندى عند نهر الموز والجيش البريطانى الثانى عند عبور نهر الراين عام ١٩٤٥ .

وقد أصدر ادوارد أوامره عام ١٣٤٥ بصنع ١٠٠ من هذا السلاح ، وبالتالى فقد بدأت الأسلحة النارية فى الاستخدام بشكل منتظم فى منتصف القرن ١٤ ، ولـكنها لم تحدث تأثيراً فعالا على مجرى الحرب لعدة سنوات .

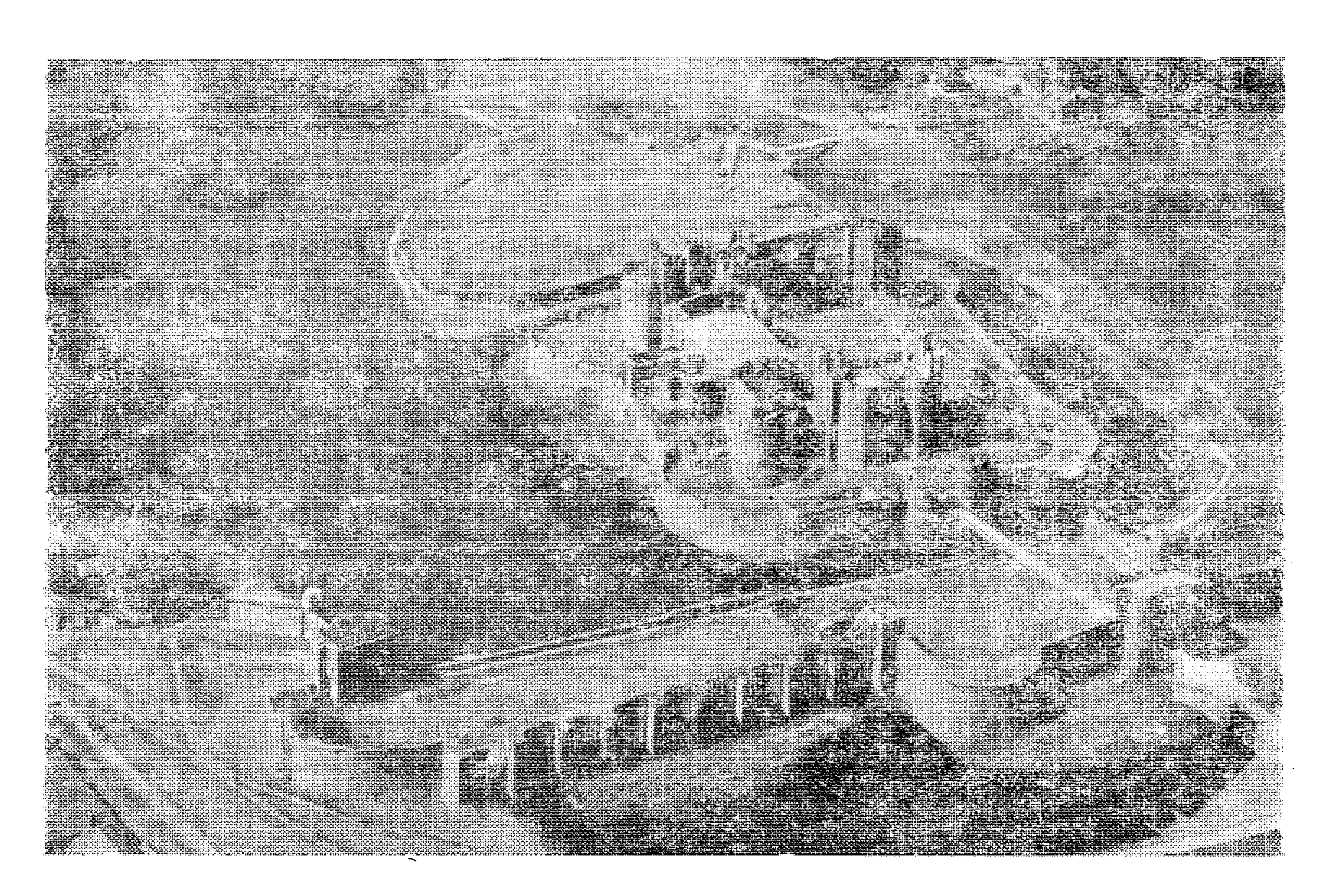
قلعة الباستيل

وأخيراً حطمت المدافع قوة ومناعة الحصون والتى كانت العنصر الثانى العظيم فى فنون الحرب النورماندية .

وقد عاش الحصن كقوة يعتد بها أطول مما عاشه الفارس ، وفيما بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٢٠ شيدت حصونا ضخمة وقوية لم يشهدها أى عصر . . ، وأصبح الآن القاعدة الرئيسية فى بناء التحصينات هو بناء سلسلة من الأسوار القوية الساترة المتحدة المركز ، كما أعطى اهتماما كبيراً بالتحصينات الخارجية . فالخندق المائى أصبح عادة على شكل بحيرة

وأصبحت بيوت الإقامة داخل الحصن على شكل مربع قوى وتـكونت من ثلاث أو أربع طوابق ومحاطة من أعلى بأبراج مزدوجة ، أما عن طرق الاقتراب إلى الحصن فـكان يعترضها كوبرى متحرك أو أكثر ثم البوابة والتى تحميها مجموعة من الشرفات كل منها على شـكل كوة لإطلاق القذائف على المهاجمين علاوة على الأبواب المـكونة من القضـبان الحديدية عند مدخل الحصن ، بالإضافة إلى الفتحات المائلة إلى الخارج فى السور . وعادة كان الفناء الأوسط الذى يحيط به الأســوار يضم مدينة كاملة ، مثل مدن فلينت وكونواى وكيرنارفون .

وهذه القلاع التى بنيت إبان حروب إدوارد الأول الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) قد خدمت غرضاً استراتيجيا يشابه غرض الحصون التى شيدها الفرسان التيتونيون والتى استخدمت لصد وإبعاد البرابرة البروسيين، ويصف سيدنى توى حصن كيرفيلى الذى شـيد



قلعة كيرفيلى

فى الفترة بين عامى ١٢٦٧ – ١٢٧٧ ويعتبر من أقدم وأفضل الحصون المتحدة المراكز :— «شيد الحصن على جزيرة فى بحيرة، والبحيرة يغذيها مجرى مائى ويدافع عنها سور ضخم أو خزان مكوناً الحصن الأمامى . والجزء الرئيسى من الحصن مستطيل ومحاط بخطين من الأسوار، الداخلى مزود ببرج فى كل ركن وبمخفر كبير عند البوابة ، أما السور الخارجى فعبارة عن قوس يمتد شرقاً وغرباً فى خط يوازى السور الداخلى .

ويوجد فى السور الخارجى بوابة شرقية وجنوبية . ويوجد فى أبراج السور الداخلى مسقط رؤيا واضح بدرجة أنه يمكن مسح كل الوجه الخارجية للسور إذا ما أطلقت السهام من الكوات والشرفات .

والسور الخارجى أقل إنخفاضاً وأقل سمكا من الداخلى ، وفى مكان الأبراج تأخذ الأسوار فى الإمتداد الدائرى حول الأركان ، و البوابة الشرقية تواجه الحصن الأمامى . ويمر طريق الاقتراب من على كوبرى متحرك ، أما البوابة الجنوبية فتواجهها تحصينات خارجية تقف فى نفس البحيرة . وبالإضافة إلى البوبات الرئيسية فكان هناك ثلاث بوابات جانبية للفناء الداخلى ، ويحمى كل مدخل أبواب حديدية ترفع وتنزل . وتجلب الإمدادات للقلعة عن طريق البوابات الجانبية فى السور الخارجى أو للهروب باستخدام القوراب الى خارج القلعة .

أما السور الضخم ، وهو سور الوقاية ، فدعم على جناحه الأيمن بسلسلة من الدعامات الضخمة ، أما الجناح الأيسر فدعم بثلاثة أبراج قوية ، ويعتبر هذا السور الضخم من أكثر الأعمال الهندسية العسكرية قوة وتأثيراً ، ويجرى من خلال هذا السور ثلاث قنوات لتنظيم مستوى الماء فى البحيرة بواسطة بوابات عند مدخل كل قناة .

ولم يحدث أبدا أن اقتحمت قلعة كيرفيلى ، وليس فى ذلك غرابة ، فكان من الضرورى لمهاجمتها عبور خندقين مائيين وثلاث أسوار تضمنت كل التحسينات والتطورات فى أساليب الدفاع .

وفى القرن ١٤ كان لا يزال يبنى مثل هذه التحصينات القوية ، مثل قلعة الباستيل فى

فى باريس (١٣٧٠ — ١٣٨٣) ، وكانت ذات بناء مستطيل ويوجد بأسوارها ثمانية أبراج قوية .

وكانت الأسوار عالية مثل الأبراج ومتوجة بسلسلة متعاقبة من الشرفات إطلاق القذائف على المهاجمين ، علاوة على خندق مائى واسع . ولاشك أنه كان من الممكن أن يصمد الباستيل بسهولة فى ١٤ يوليه ١٧٨٩ إذا توفر قليل من الروح الدفاعية .

ونجد أيضاً أن الكثير من كنائس القرنين ١٣ ، ١٤ محصنة ، مثل كتدرائية «ألبى» وقديس «ماريس» بالقرب من «أرليس»، وحتى المدن المدنية الجديدة فى إيطاليا اتخذت هندستها ظواهر دفاعية كثيرة ، ففى سان جيمجنانو كان هناك على الأقل ٢٠ منزلا بها إبراج محصنة . وحتى خلال عصر النهضة بنيت كثيراً من منازل المدن بأسوار عريضه ونوافذ مزودة بحواجز قوية . ومع ذلك ، فمع حلول القرن ١٤ ، تغلبت متطلبات الاستقرار والرفاهية على متطلبات ودواعى الأمن .

ثورة فى تاريخ التكتيك

ومن صدق القول أنه قبل المنتصف الثانى للقرن ١٣ لم يدرك أى قائد فى غرب أوروبا الأمكانيات التكتيكية الكامنة فى تنسيق العمليات بين المشاة والفرسان ، ذلك إذا تغاضينا عن ذكر أن المشاة كانت غالبا ما تستخدم وحدها كسلاح رئيسى بالرغم من الدروس التى قدمها كل من « ليـنانو » و«الصليبيين» . وعلى العموم فقد تغير الموقف الآن تغيرا مثيراً ، ويرجع ذلك أساساً إلى المفاهيم التكتيكية لكل من إدوارد الأول ملك إنجلترا ورودلف أرلاش الزعيم السويسرى .

وفيما بين عامى ١٢٨٢ و ١٣٤٦ كسبت المشاة سلسلة رائعة من الانتصارات المنطقية والتى كانت بمثابة ثورة فى تاريخ التكتيك .

ففى معارك كورتراى (١٣٠٢) ومورجاتن (١٣١٥) ولوبين (١٣٣٩) استطاع حملة الرماح من المشاة هزيمة الفرسان المدججين بالسلاح ، كما هزم حملة الأقواس الطويلة ، حملة الرماح الراكبين فى قنطرة أورين (١٢٨٢) وفالكيرك (١٢٩٨) وتل هاليدون (١٣٣٣) .

وفى النهاية جاءت معركة كريسى (١٣٤٦) لتعلن لأوروبا سقوط نجم ظل يتألق فى ميدان المعارك زهاء الألف سنة وهى الفرسان الثقيلة. وأظهرت المعركة فوق كل شك أن الفرسان وحدها لا يمكنها تحقيق النصر ضد رماة السهام الذين يعاونهم فرسان مدججين بالسلاح ومحتلين مواقع قوية .

ففى بواتييه (١٣٥٦) وأجنكورت (١٤١٥) أكد حملة الأقواس الإنجليزية الطويلة قوة نظامهم التكتيكى . وفى نفس الوقت فى أوروبا الوسطى استمر السويسريون من حملة الرماح فى كسب الانتصارات مستخدمين فى ذلك تكتيكا مختلفاً، وبعدهم بفترة وجيزة فى أوروبا الشرقية وضح الهسيون والبوهميون باستخدامهم المدافع فى معركة سدمور (١٤١٩) ظهور طريقة ثالثة يمكن بها أن تتغلب المشاة على الفرسان بسهولة . وكانت معركة كورتراى عام ١٤٠٢ هى أول هزة قوية تلقاها الفرسان الثقيلة بأوروبا الغربية وذلك عندما دمر جيش فلمنكى والذى يتكون من المشاة حملة الرماح ، جيشاً فرنسيا من الفرسان . وقد تحصن الفلمنكيون فى موقع قوى خلف مجرى مائى ، ولكن القائد الفرنسى أمر فرسانه بالهجوم ، مصدقا مبدأ العصور الوسطى المبتذل وهى « مائة فارس تساوى ألف رجل على الأقدام » ، وعندما وصلت الفرسان إلى المجرى المائى غاصوا فى المستنقع ، وعندما هاجمتهم المشاة الفلمنكية برماحها الثقيلة كان الفرسان فى حالة عجز تام . ولقد أثارت هذه المعركة مناقشات كثيرة ، ولكن فى النهاية وقع اللوم على المستنقع أكثر مما وقع على الفلمنكيين . وتهرب الفرنسيون من المبدأ القائل بأن المشاة الجريئة المحتلة مواقع دفاعية قوية ويقودها قائد فطن وذكى يمكنها هزيمة الفرسان بسهولة .

وعندما هزم الفرنسيون بعد ذلك الفلمنكيين بدا ذلك وكأنه يؤكد أن معركة كورتراى كانت خروجا عن الطبيعة . أما الصدمة الثانية والتى تلقتها الفرسان وتشابه هزيمة كورتراى ، فقد كانت فى النصر الذى حققه السويسريين الاتحاديين من حملة الرماح على سادتهم النمساويين عند مورجارتن عام ١٣١٥ . وفى هذه المعركة أهمل القائد النمساوى الدوق ليوبلد القيام بالاستطلاع قبل دفع جيشه فى ممر جبلى ضيق وشديد الإنحدار ، بالإضافة إلى طبيعة أرضها الزلقة وذلك خلال شهر نوفمبر (الذى وقع فيه المعركة) . وسد السويسريون الطريق وأوقعوا النمسلويين فى كمين .

وكان عدد الفرسان النمساوية أكثر ولكن أذهلتهم المفاجأة وسادهم التخبط والتحركات العشوائية (وذبحهم رجال الجبال وسلخوهم مثل الخراف فى المجزر) . ومرة أخرى ألقى اللوم على الأرض التى كانت غير ملائمة والقيادة الضعيفة .

تشكيل القنفذ

ومهما كان فقد وضح النصر السويسرى على سادتهم الإقطاعيين عند لوبين عام ١٣٣٩ الأمور فوق كل شك . فالمعركة هناك دارت بين المشاة والفرسان على منحدر مكشوف ومفتوح ، ولما كان السويسريون أقل عدداً من النمساويين فقد أتبع القائد السويسرى رودلف خطه دفاعيه فوضع فرسانه القليلة على اليمين حيث المنحدر أكثر ميلا ، بينما وضع المشاة على اليسار فى المكان الذى يتوقع فيه الهجوم المعادى الرئيسى . وكانت خطته أن ينتظر العدو حتى يبدأ فى صعود المنحدر الحاد، وفى هذه اللحظة ينقض عليهم بهجوم مركز . وعندما دارت المعركة حالف النجاح الفرسان البرنيون[1] فى اليمين أما فى اليسار فسرعان ماعانى رجال مقاطعات الغابات المتاعب عند أصطدامهم مع الفرسان البارونية ، وبدأ هجومهم عند سفح التل يتعثر وحاصرتهم الفرسان النمساوية ، وأضطر السويسريون للوقوف ظهراً لظهر وهم شاهرون مطردهم[2] ، وأشتهر هذا التشكيل بعد ذلك وسمى بالتشكيل القنفذى . ودار قتال متلاحم شديد الضراوة ، ولكنهم صمدوا بقوة حتى أتى البرنيون لنجدتهم . وهاجم البرنيون مؤخرة وأجناب الفرسان النمساوية محققين النصر فى هذه المعركة . وقد كان قتال متكافئاً ، وأستطاع الفلاحون السويسريون أسر ٢٧ علماً أقطاعياً و٧٠ خوذة مزينة .

وحتى معركة لوبين كان السويسريون لا زالوا يستخدمون المطرد ولكن كان طول المطرد ٨ أقدام فقط ، ففى هذا الوقت غير السويسريون المطرد بالرمح الطويل (المنخاس) وبلغ طوله ١٨ قدما وينتهى برأس من الصلب طولها ١٠ بوصة ويستخدم أفقياً وكان فعالا ضد الفرسان. وفى تلك المعركة أقام السويسريون حاجزاً صلباً لا يخترق من الحراب المشهرة والتى تخرج سويا من الصفوف الأربعة الأولى . وكان هذا الحاجز مؤثراً سواء كحائط دفاعى أو أثناء التقدم فى

---

(١) نسبة إلى مدينة برن السويسرية .

(٢) سلاح قديم مكون من رمح ثقيل برأسه منخس وفأس حرب . «المعرب»

حشد . ولقد كان هذا الأسلوب التكتيكى السويسرى غاية فى الكفاءة والسهولة ، ومشابها لأسلوب التكتيكى الأسبرطى والرومانى . وقد أعطتهم دروعهم الخفيفة(بسبب الفقر أصلا) قدرة فائقة من خفة الحركة مما أدى إلى مبـــادأتهم بالهجوم فى أغلب الأحيان . ووصفهم ميكافيلى بأنه « لاتوجد قوات أبداً أسرع منهم فى السير أو فى الفتح لتشكيل المعركة » . وكانوا يسيرون فى مجموعات قتالية منتظمة ، كما كانوا أول قوات حديثه تسير وخطواتها تتبع الموسيقى . وكان أسلوبهم العادى فى الهجوم هى التقدم على شكل مجموعات متوازية وكل مجموعة عبارة عن ثلاث طوابير متوازية والتى تبعد عن بعضها للخلف بقليل .وهذا التشكيل أعطاهم وقاية للجنب ومع توفير أحتياطى للطابور المهاجم فى المقدمة .

تعاقدات الالزام

ولم يلق حملة الرماح السويسريون أية هزائم جدية خلال القرنين التاليين لمعركة لمورجارتن (١٣١٥) ولكن النزاع بين المقاطعات ونظامهم فى القيادة الذى يعتمد على مجلس أعاق السويسريون من متابعة أنتصاراتهم إستراتيجياً ، ولم يتمكنوا أبداً من أقامة قوة سياسية من الدرجة الأولى من أنفسهم ، وتحولوا بدلا من ذلك إلى مجموعات كبيرة من الجنود المرتزقة فى أوروبا . فى عام ١٣٨٦ عند سمباك حققوا نصراً آخراً هاما ، وفى هذه المرة كان النصر على الفرسان المترجلين . ولم يفهم القائد النمساوى خلال المعركة أن الأنتصارات السويسرية السابقة كانت راجعه إلى أسلحتهم وتشكيلاتهم الخاصة ، وقدر بدلا من ذلك أن قواته لو قاتلت على أقدامها فمن المفروض أن تكون قادرة بتجهيزاتها ومعداتهـــا الأثقل على صرع الفلاحين السويسريين . ولكن قبل أن يحدث الأشتباك ، كان النمساويون قد أصابهم الأنهاك وأستنزفت قواهم تحت ثقل دروعهم ؛ وكانت تجربة جلبت عليهم كارثة .

وفى عام ١٤٧٦ حقق حملة الرماح السويسريون أعظم انتصـــارين مشهورين على كل انتصاراتهم وهما انتصارهما على شارل المتهور حاكم بورجندى عند جرانسون ومورات . وكانت إنجلترا هى المسرح الذى أعلنت فيه ثورة المشاة الأولى على نفسها . وكان المسئول عن هـذه الثورة هو أدوارد الأول (١٢٧٤ — ١٣٠٧) فاتح ويلز والمنتصر فى معركة فالكيرك عام ١٢٩٨ . وكان أدوارد الأول قائداً بارعاً ومنظماً عسكرياً من الدرجة الأولى

فى حملته عام ١٢٦٥ بابفشام برهن على ما يتمتع به من أدراك وتصور أستراتيجى بارع، فقد أستطاع بسلسلة من المناورات السريعة أن يعوق جيشين معاديين من الألتقاء وتوحيد صفوفهما، بينما ظل محتفظاً طوال هذا الوقت بجبهة دفاعية على ساحل نهر طولها ٥٠ ميلا، وتمكن بهذه الطريقة من تحطيم أحد الجيشين ثم دار بسرعة لاصطياد بسيمون دى مونت فورت فى أحدى مخاضات النهر. ومرة أخرى فى حربة الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) أظهر أدوارد إدراكه وتفهمه للاستراتيجية الصحيحة عند بنائه شبكة منظمة من الطرق والحصون ولاحظ أنه لن يستطيع قهر رجال الجبال الويلزية بالجيش التقليدى لهذا العصر (أى بجيش من الفرسان) والذين حددوا مدة أشتراكهم فى القتال بفصل الصيف فقط. ولذا قام بأبتكار فكرتين على جانب كبير من الأهمية، وهما أعتماده على جيش محترف مؤجر ومتعاقد على القتال طوال العام، واستغلاله لإمكانيات القوس الطويل. وقد بدأ احتراف الجيوش مع تزايد أعتمادها على المرتزقة، كما أن عدم ملاءمة القوات الإقطاعية العادية للحملة الويلزيه أرغمت أدوارد الأول على التخلى عن هذه الطريقة من التجنيد الإقطاعى. وعلى كل حال كان النظام الأقطاعى نفسة يتحطم لأسباب أقتصادية ودستورية عديدة. كما أنه فى القرن اللاحق جعلت العوامل الأقتصادية التخصص والجيوش المحترفة ضرورة أكثر من قبل وذلك عندما أصبحت الأنواع الجديدة من الدروع باهظة التكاليف بالإضافة إلى الهبوط الحاد فى تعداد سكان أوروبا تحت وطأة الطاعون. وكان حل أدوارد الأول لمشكلة التجنيد هو تشجيع الكثيرين من باروناته الإقطاعيين على استبدال خدمتهم الإقطاعية بضريبة « البدل » والتى أشير إليها فى بداية هذا الفصل، كما طلب من باروناته الآخرين إحضار قوات أقل ولكن أفضل، وتعهد على التعاقد معهم للخدمة بعد أنتهاء خدمتهم الإلزامية حسب تعهدات الأقطاع، وفى سبيل ذلك سيدفع لهم أدوارد أجورهم أثناء هذه المدة الأضافية.

وأول هذه التعاقدات العسكرية عرف بأسم « الألزام » وتم عام ١٢٧٧. وطور أدوارد الثالث هذا النظام خلال حروبه الفرنسية والاسكتلندية. وكانت هذه التعاقدات العسكرية عبارة عن أتفاقيات مكتوبة ومحددة بين الملوك والضباط المحترفين، وفى تلك الأتفاقيات يحدد

تماما حجم القوة التي سيتم استخدامها ومكان ونوع ومدة الخدمة ومعدلات الأجور والمنح.. إلخ . . وغالباً ما كانت القوة التى تقدمها مثل هذه الأتفاقات تتكون من جميع الأسلحة وتضم فى صفوفها مهناً مختلفة مثل الصناع والجراحين والقسس والمترجمين بالإضافة إلى رماة السهام والفرسان المدججين بالسلاح ، وتراوحت مدة الخدمة من ٤٠ يوما (حسب قانون الإقطاع القديم) إلى ما تحدده مشيئة الملك. وعلى سبيل المثال تعاقد فى عام ١٩٦٠ أيرل حا كم كنت على خدمة الملك لثلاث شهور فى مقابل الأجور المعتادة للحرب ، وطبقاً للاتفاقية تعين على أيرل أن يقدم ٦٠ فارساً و١٢٠ من رماه السهام على أن يمتطى الجميـــع الخيول . ومن عام ١٣٤٠ فصاعدا لم يعد هناك أى عناصر إقطاعية فى جيوش أدوارد الثالث ، وأصبحوا يتكونون تقريباً من رعاياة بالأضافة إلى جماعات قليلة من المرتزقة الأجانب . وقد خدموا جميعاً طبقـــا لتعاقدات « الألزام » وتحت قيادة ضباط محترفين وعلى جانب عال من المقدرة والكفاءة .

وخلال حرب المائه عام كان تعداد فرنسا بلغ خمسة أضعاف سكان إنجلترا إلا أن الفرنسيين تمسكوا بنظام التجنيد الإقطاعى ، وبذلك لم يتوفر لديهم مشاة منـــاسبة ، وبالرغم من أن فرسانهم كانت أكثر عدداً من فرسان الإنجليز إلا أنهم كانوا أضعف تنظيما وأقل تدريباً .

المعركة الرهيبة

أما الابتكار الثورى الثانى لإدوارد الأول فكان فى جعله القوس الطويل هو السلاح الرئيسى للانجليز .

ففى إيفشام (١٢٦٥) كان الرماة الإنجليز لازالوا مسلحين بالقوس النشاب ، ولـكن فى الحروب الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) وصل القوس الطويل إلى مقدمة الأسلحة الإنجليزية ، يعود النصر الإنجليزى عند قنطرة أورين (١٢٨٢) إلى هذا السلاح ، وفى الحقيقة كان أصله من أسلحة ويلز .

وقد بلغ ارتفاع القوس الإنجليزى الطويل ستة أقدام وأربعة بوصات ، وكان يتطلب لجذبه قوة عضلية تساوى حوالى ١٠٠ رطل ، ويصنع عادة من خشب الطقوس[1] وخشب الدردار .

---

(١) شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية . «المعرب»

وكان عرض القوس ١ ½ بوصة وسمكه ١ ¼ بوصة ، ذات شكل مسطح منبسط من الخارج ومستدير من الداخل . ونهايات القوس مدببة مسكوة بقرن لتثبيت وتر القوس . ومن المرجح أن الوتر كان يصنع من خيط القنب الملفوف عليه حبل رفيع من الكتان .

أما السهم أو القصبة فكان طولها ٣٠ بوصة وتنتهى برأس صغيرة على شكل معين ومثبت فى نهايتة ثلاث ريش من ريش الأوز . ولا شك أن مثل هذا القوس الذى يبلغ طوله ٦ أقدام يحتاج إلى رجل قوى وطويل جداً ، ويحتاج للعمل به إلى جذبه فى حركة واحدة تقريباً حتى زاوية الفك السفلى ثم يصوب ويطلق ، وقد بلغ المدى الدقيق ٢٥٠ ياردة بينما كان أقصى مدى هو ٣٥٠ ياردة والدرع الوحيد الذى كان يرتديه حملة الأقواس الطويلة هو غطاء معدنى للرأس وعباءة ملبدة أو محشوة ، وفى بعض الأحيان ارتدوا حلة مصفحة كاملة ، وحمل الرماة إلى جانب القوس سيفاً وفى بعض الأحيان حملوا هراوة برأس حديديه ولحماية أيديهم كانوا يرتدون عليها واق من الجلد ، كما أبقوا شعرهم قصير حتى لا يمنع الوتر من الإشتباك والتعقد مع شعرهم ، وبهذا خلقوا تقليدا عسكريا بريطانيا .

ومنذ عام ١٢٥٢ فصاعدا أصبح لزاما على كل من يمتلك ٤٠ شلنا إمتلاكا حراً أن يمتلك قوساً ، وبذلك أصبح جميع الفلاحين الصغار والذين يملكون أرضاً صغيرة ويزرعونها عبارة عن ميليشيا من الرماة .

وكان يتم التدريب على الرماية فى أوقات مختلفة وإجباريا ، وكان يأخذ صوراً مختلفة مثل الرماية على نقار خشب أخضر اللون يوضع فوق برج الكنيسة وذلك بعد صلاة الأحد ، أو على شكل مباراة الروفر[1] .

وقد عرفت الطاقات التكتيكية لنيران المقذوفات بصورتها الكاملة خلال حروب إدوارد الأول بويلز .

فالسيل المنهمر من السهام كخطوة مبدئية يثير أعصاب جنود العدو ثم يدمر تلاحمهم وتماسكهم ، كما يكون غطاء لتقدم الفرسان .

---

(١) جولف العصور الوسطى والذى يتقدم فيه الرماة من ميدان إلى ميدان ويطلقون أسهمهم على هدف بعد الهدف . « المعرب »

وفى ديسمبر ١٢٨٢ عند قنطرة أورين استطاع الإنجليز بقيادة أدواردمورتيمر وجودن جيفارد أن يهزموا أهل ويلز .

وكان حملة الرماح من أهل ويلز محتشدين فى موقع قوى على أحد المنحدرات ، ولكن فاجأهم الإنجليز بإطلاق بوابل من سهام الأقواس الطويلة عليهم من الجنب ، وبعد ما تحقق الإنجليز من تأثير سهامهم أطلقوا فرسانهم لمهاجمة أهل ويلز . وبنفس الأسلوب تقريباً استخدم فى القتال فى معركة بالقرب من كونواى عام ١٢٩٥ ، كما أن أدوارد الأول نفسة حاول عام ١٢٩٨ أن يطبق نفس هذه التكتيكات الجديدة ضد الاسكتلنديين فى فالكيرك ، وفى هذه المعركة صمد وليام ولاس فى مواجهة الإنجليز بأقوى موقع دفاعى ممكن . وانتظم الاسكتلنديون فى أربعة مجموعات كبيرة من حملة الرماح، وكان الموقع الاسكتلندى على ميل حاد وفى مؤخرته غابة وأمامه أرض سبخة. أما إدوارد الذى كان بعيداً عن قاعدته وتنقصه الإمدادات علاوة على أنه كان مصاباً بكسر فى ضلعين من ضلوعه ، وبالرغم من ذلك فقد قرر القيام بالهجوم .

وبدأت المعركة بالتفاف الفرسان الإنجليزية من يمين ويسار السبخة ليهاجموا الاسكتلنديين من كلا الجانبين ولكن حملة الرماح الاسكتلندية صدوهم بسهولة . وبدلا من أن يأمر إدوارد بهجوم ثان من الفرسان ، أحضر رجاله من حملة الأقواس الطويلة ، ومن مسافة قريبة جداً أطلق هؤلاء سهاما مركزة على نقطة معينة فى حشود العدو ، وسرعان ما سقط الكثير من الإسكتلنديين وشاعت الفوضى والاضطراب بين الباقين ، وفى هذه اللحظة قام فرسان الأنجليز بهجوم ثان على الأجزاء الضعيفة من جبهة العدو نتيجة للسهام الإنجليزية المركزة ، وهذا الهجوم حسم المعركة وانتهت بمذبحة رهيبة .

أما هزيمة الإنجليز على يد الاسكتلنديين بقيادة بروس عند بانوكبيرن عام ١٣١٤ ، فسببها أن إدوارد الثانى عاد إلى إتباع أسلوب القتال القديم وعدم تنسيقه العمل بين رماته وفرسانه ، ولكن ذلك لم يكن سوى ذلة مؤقتة .

ففى عام ١٣٣٢ أحدث إدوارد فى معركه دبلن تطوراً كبيراً فى الأسلوب الإنجليزى الجديد بإشراك الرماة مع الفرسان (بعد أن تترجل) فى تشكيل دفاعى ، فوضع

الفرسان المترجلة في الوسط بينما انتشر رماة السهام على الجناحين على شكل هلالى متباعدين وغير متماسكين حتى لاتشجع العدو على الهجوم عليهم، إذا كانوا فى حشد . وعند ما بدأت المعركة وتركزت فى الوسط ، قام الرماة وفى وقت واحد بإطلاق سيل من سهامهم على أجنحة الطوابير الاسكتلندية ، ففقد الاسكتلنديون صوابهم وأخذوا يتخبطون ببعضهم ، وهنا اندفع الفرسان الإنجليزية بهجوم حسم المعركة .

وفى العام التالى كرر إدوارد الثالث بمعاونة كبار الضباط الذين قاتلوا معه فى دبلن مور ، هذه الخطة التكتيكية فى معركة تل هاليدون وحصل على نفس النجاح الذى حققه فى دبلن مور .

خنجر الاجهاز والرحمة (أنظر االوحة رقم ١٨)

وفى عام ١٣٣٧ بدأت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، وقد سببت الخصومات والخلافات والعداء أن أصبح هذا الصراع الطويل أمراً ذا أهمية وطنية لكلا الجانبين . وتضمنت المشكلة الوضع الإقطاعى للدوقية الإنجليزية فى جيين (فى جنوب غرب فرنسا) وإدعاء إدوارد الثالث بحقه الشرعى فى عرش فرنسا ، والمعاونة الفرنسية للاسكتلنديين والنزاع حول تجارة الصوف الفلمنكى ، وحرب الحدود الطويلة بين التجار الإنجليز والفرنسيين فى بحر المانش .

وتطورت هذه الحرب من غزوات إنجليزية قليلةغير متصلة إلى حرب تدمير واستنزاف كبيرة ولكن ليست ذات معارك حاسمة .

وفى الواقع وصلت الحرب لأن تكون فى الحقيقة عبارة عن أعمال نهب متكررة للمزارع والأديرة فى كل من نورماندى وبريتانى وا كويتين، وتقوم به جماعات من الجنود المحترفين المتوحشين .

وكانت أول معركة كبيرة فى هذه الحرب هى المعركة الحربية التى دارت رحاها خارج سلويز عام ١٣٤٠ .

وظلت السفن على نفس طراز سفن الفايكنج لمدة ١٥٠ عاماً بعد معركة هاستنجز ، كما لم يحدث أى عمليات بحرية كبيرة فى المياه الشمالية .

ولكن فى القرن ١٣ نشبت حربا شبه متواصلة فى بحر المانش ذات ضراوة إلى حد ما .

وفى هذا القرن تطور بناء السفن حتى أصبحت سفينة القيادة لإدوارد الثالث والمسماة « توماس » حمولتها حوالى ٢٧٥ طن وطاقمها مكون من ١٣٧ رجلا . كما أصبح للسفن جوانب عالية وأسطح مرتفعة عند مقدمتها ومؤخرتها . وعادة ما كانت القوة الدافعة فى السفينة هى شراع مربع واحد كبير . وكانت التكتيكات المستخدمة فى البحر هى نفس التكتيكات المستخدمة على البر ولم يكن الاختلاف إلا فى نوع التسليح . وقد قاتل الفرنسيون عند سلويز بالسيوف والرماح وبعض من القوس النشاب ، بينما قاتل الإنجليز بفرسانهم المترجلين . ولكن اعتمد الإنجليز أساساً على حملة الأقواس الطويلة[1] وكان إدوارد الثالث يتولى القيادة بنفسه ، وكان لدى الإنجليز ١٤٧ سفينة بينما كان لدى الفرنسيين ١٩٠ سفينة . ونظم كلا الجانبين أسطولهما فى ثلاث مجموعات ، ولكن الفرنسيين ربطوا سفن كل مجموعة مع بعضها بحيث تكون لديهم ثلاث أرضيات عائمة كبيرة لجنودهم ، أما الإنجليز فاتخذوا تشكيلا أكثر مرونة ويتكون من سفن متعاقبة تحمل الرماة والفرسان المترجلة . كان الأسلوب التكتيكى الإنجليزى فى إطلاق قصف أولى للمقذوفات من على مدى بعيد بهدف إضعاف قوة العدو ، ثم بعد ذلك يتم الاقتراب منه حتى يتمكن جنودهم المسلحين بالرماح والسيوف من إعتلاء سفن العدو ومقاتلة جنوده . وبعد قتال دام ثمان ساعات إنهزم الفرنسيون . وفقد الفرنسيون فى هذه المعركة ثلاثة أرباع رجالهم وسبعة أثمان سفنهم .

وبالرغم من أنه لم يحدث معارك برية كبيرة إلا بعد أبتداء الحرب بحوالى ١٠ سنوات إلا أنه حدثت حملات عديدة أعطت لكلا الجانبين الفرصة ليشعر بالآخر . ولقد تشابه تسليح ومعدات فرسان كلا الجانبين ، وكانت البدلة المدرعة والتى على شكل زردات معدنية فى طريقها إلى التحول إلى ألواح معدنية لها شكل ملائم للجسم ، وأصبحت الخوذة أكبر

---

(١) تطلق سهاماً خاصة مزودة برؤوس عريضة لتقطع الأشرعة وحبال الأشرعة والصوارى للسفن المعادية . « المعرب »

وأكثر قوة ومتانة بينما صغر حجم الدرع وأصبح المهماز من المظاهر البارزة لهذا العصر . وكانت الأسلحة الرئيسية عبارة عن سيف ورمح طوله ١٤ قدماً أو خنجر طويل أو خنجر المسمى « خنجر الأجهاز والرحمة » . وتشكلت الوحدات التنظيمية من أتباع الفرسان وكانت تنقسم إلى مجموعات أو « مرازيق » كل منها تتألف من ثلاثة أو أربعة مقاتلين. وكان لدى الجانبين الإنجليزى والفرنسى بعض الأسلحة النارية ، ولكن لم تكن لهذه الأسلحة أى فائدة تكتيكية فى هذا الوقت . أما نقطة الإختلاف بين الإنجليز والفرنسيين والتى تفوق بها الإنجليز هى التدريب والتجنيد ونوعية المشاة ، فالمحترفون الإنجليز كانوا على جانب كبير من النشاط والحيوية نتيجة للنجاح الذى حققوه فى أسكتلندا ، بينما كان مجندوا الأقطاع الفرنسى لم يكن لديهم أى خبرة قتالية منذ ٢٥ عاماً اللهم إلا بعض الحملات القليلة فى داخل جيين . وكان لدى الفرنسيين وحدات من المشاة حملة النشاب بينما كان لدى الإنجليز قوة كبيرة من الرماة الذين يستخدمون سلاحاً مداه ضعف مدى القوس النشاب ويعطى ستة أضعاف معدل نيران النشاب .

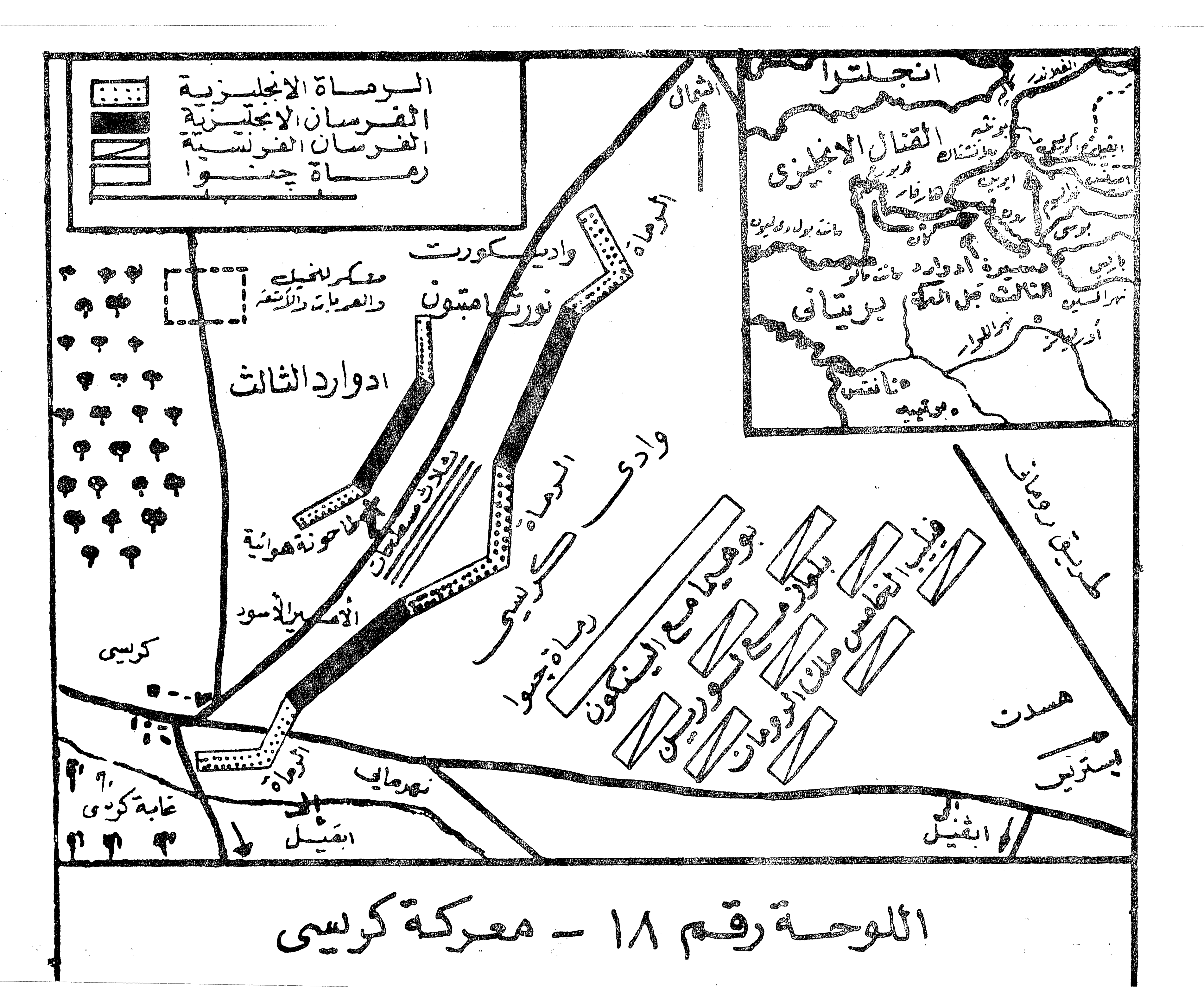
وقبل وقوع الصدام الكبير الأول بين الجانبين فى معركة كريسى عام ١٣٤٦ ، تلقى الفرنسيون درسين قاسيين ذاقوا فيهما طعم المرارة الحادة من قوس الإنجليز الطويل . ففى عام ١٣٤٢ عند موقعه مورليه ، وضع إيرل نورثامبتون رجاله فى خنادق دفاعية على سلسلة مرتفعة خلف أحد المستنقعات ، وقد وضع فى الوسط فرسانه المترجلين بينما وضع الرماة على الجناحين . وعند بدأ القتال قصف الرماة سيل منهمر من سهام الأقواس الطويلة على فرسان الفرنسيين المهاجمة مما أدى إلى حدوث إضطراب مرعب وفى هذه اللحظة إنقض عليهم من أعلى الفرسان الإنجليزية . ومرة أخرى تصيد الفرنسيون أحد الطوابير الإنجليزية عند « سانت بول دى ليون » فى بريتانى وحاصروه ، ولكن الإنجليز ثبتوا وأمطروا عدوهم بوابل من السهام ونتج عن ذلك أن القتال أصبح مذبحة حقيقية للفرنسيين .

وفى الفترة من ١٣٤٥ — ١٣٤٦ بدأ أدوارد الثالث يفكر فى إستراتيجية طموحة ، وذلك بمهاجمه فيليب الرابع ملك فرنسا على خطوط خارجية أى فى كل من بريتانى وغاسقونيا والفلاندر . وقام كل من إيرل نورثامبتون وسيرتوماس داجورت بحملات ناجحة فى

بريتانى بينما عمل إيرل دربى فى الجنوب الغربى . وفى عام ١٣٤٦ أثير فيليب وتقدم نحو دربى، ولكنه اضطر إلى العودة شمالا فى يوليه عندما وصلته أنباء نزول أدوارد الثالث قرب شربورج ومعه أكثر من ١٠٫٠٠٠ مقاتل، وعلى الفور دفع من دربى بحمله خداعية فى إتجاه بوتييه .

وبعد كل هذه الهجمات ، كان أدوارد يأمل أن يحث ذلك فيليب فيقدم شروطاً للاتفاق أو يقابله فى معركة حاسمة ، ولكن إستراتيجية كانت غير محددة المعالم . وتقدم الجيش الإنجليزى على جبهة عريضة ، وكان تقدمه هذا من خلال كثير من الأراضى التى قاتلت عليها جيوش الحلفاء بعد غزو نورماندى فى يونيه ١٩٤٤. ودمرت القوات الإنجليزية جميع قواعد السفن والسفن نفسها على طول الساحل ، وتم الإستيلاء على كان فى ٢٦ يوليه ، واستمر الزحف حتى نهر السين وبعد هذا واجهت أدوارد المشاكل ، فقد عاد الكثير من سفنه إلى إنجلترا ولم يعد لديه مواصلات مأمونة فى الخلف ، فى نفس الوقت كان يتقدم من الجنوب جيش فرنسى كبير . وهنا برز له السؤال التالى ألا يكون من الاكثر أمنا التحرك بعيداً إلى الشمال الشرقى نحو الفلاندر ، فهذا يعطيه الأمل فى الإتصال بقوة الإنجلو — فلا ندريه والتى كانت تتقدم جنوباً من أبرس ؟ ولكن لم يكن فى استطاعته كما كان يأمل عبور نهر السين عند روفن نتيجة لتدمير الكوبرى الموجود بها .

ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته ، وبسرعة قرر التقدم بجيشه بمحاذاة نهر السين حتى يجد مكانا صالحاً للعبور والذى وجده عند بوس بالقرب من باريس،وعبرت القوات الإنجليزية ولحسن حظه أن فيليب فشل فى مهاجمته ، فتقدم أدوارد بأقصى سرعة فى إتجاه السوم . وفى ٢٢ أغسطس وصل إلى ابيفيل ، أما فيليب فى ذلك الوقت كان عند مدينة أميئس . وفى ٢٣ أغسطس وصلت مقدمة الفرنسيين إلى ايرينى بعد ان غادرتها مؤخرة الإنجليز بساعتين . والآن أصبح موقف ادوارد حرجاً لأن عليه عبور نهر السوم والذى يعتبر فى الواقع عائقاً كبيراً . واننى اعرف هذه المنطقة جيداً فقد خضت على ارضها غمار حربين عالميتين ، ولذا يمكننى ان اتصور بجلاء مشاعر واحاسيس ادوارد . ولكن فى تلك اللحظة العصيبة لم ينقذ ادوارد سوى شجاعته وقراره السريع الحاسم . ففى ليلة ٢٣ اغسطس عرض مكافأة كبيرة



اللوحة رقم ١٨ - معركة كريسى

لأى شخص يدله على مخاضه لعبور السوم ، وفعلا تقدم أحد السكان الفرنسيين وخان بلده وأرشد الإنجليز ليلا عن مـكان على نهر السوم عند قرية بلاشتاك التى تبعد ١٠ أميال اسفل ابفيل ... وكان النهر هناك عريضاً جداً ويحتل العدو الضفة الأخرى بقوة مكونة من ٥٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة . وفى صباح اليوم التالى تقدم الرماة الإنجليز للعبور، وبالرغم من بلل اوتار الأقواس ووصول المياه إلى وسط الأفراد فقد استطاعوا تطهير الضفة المقابلة مما ساعد الفرسان فى شق طريقهم من ورائهم . ثم بدأ حرس المؤخرة فى عبور النهر وهى تقاتل فى نفس الوقت القوات الفرنسية القادمة من الخلف . والأمر الغريب أن القوات الفرنسية لم تقم بعد ذلك بمطاردة تالية للقوات الإنجليزية .

ولقد كان العبور الإنجليزى وعدم وقوع قواتهم بين براثن القوات الفرنسية عند بلانشتاك عملا ممتازاً اشتركت فى ابرازه جميع اسلحتهم .

الحائط الانجليزى المدرع (انظر اللوحة رقم ١٨)

وفى ٢٥ اغسطس أستراح الجيش الإنجليزى عند حافة غابة كريسى بينما كان الجيش الفرنسى موجود عند بونثيه والتى تقع على بعد ١٠ اميال شمال ابفيل . قد قرر ادوارد ان يخوض المعركة مع الفرنسيين ، ويبدو واضحاً ان فيليب وصل ايضاً إلى نفس القرار . وكان ادوارد يشعر بأنه مضطر للدفاع عن إملاك جدته فى كريسى آن بونثيه وهذا بالإضافة الى ارتفاع معنويات جيشه بعد معركه بلانشتاك . وقد علم ادوارد ايضا ان الفرنسيين أوقفوا التقـدم الأنجـلو/ فلا ندرى على مسافـــة ٥٥ ميلا الى الشمال وهـذا يعنى انه لا يتوقع اى مساعدة منهم .

ولـكن فى نفس الوقت كان الأصدقاء من الفلاندريين على مسيرة ٣ ايام فقط إلى الشمال علاوة على عدم وجود اى عوائق طبيعية فى حالة الإنسحاب شمالا .

وفى صباح ٢٦ أغسطس ١٣٤٦ أعد أدوارد الثالث جيشه للمعركة ، وكان لديه فرصة إختيار المـكان وأيضاً الوقت الـكافى لحشد وفتح قواته للقتال . وعلى الفور اختار موقعاًدفاعياً قويا لسببين، الأول أنه يعلم أن عدوه يفوقه عدداً والثانى أن ذلك الموقع سوف يلاءم أسلوبه التـكتيكى . وكان هذا الوقع الدفاعى عبارة عن سلسلة مرتفعة من الأرض تمتد حـوالى

٢٠٠٠ ياردة فى إتجاه الشمال الشرقى من قريه كريسى إلى مجموعة المنازل واديكورت .

وكان هناك نهير يسمى مايى يجرى من الشرق إلى القرب مارابـكريسى ، وكان هذا النهير يبعد عن نهاية السلسلة الجنوبية (الجناح الأيمن الإنجليزى) بمسافة حوالى ١٠٠ قدم وفى هذا المـكان كانت السلسلة حادة الميل ولأسفل ولـكن فى الشمال الشرقى كان الميل يتدرج حتى يصبح قليلا جداً عند الجناح الأيسر الإنجليزى .

وخلف السلسلة بمسافة بضعة مئات من الياردات كانت توجد غابة . وزاد من القوة الطبيعية للسلسلة وجود ثلاثة مسطحات مدرجة من الأرض فى المنتصف . وكانت هـذه المسطحات والتى يبلغ طول الواحدة منها حوالى ٣٥٠ ياردة ، أقيمت أصلا بغرض الزراعة ، ولذا كان من الصعب جداً على الفرسان أن تتغلب عليها واجتيازها وبذا حمت القرية والمجرى المائى الجناح الأيـمن للانجليز تماما . أما الجناح الأيسر ولو أنه كان أضعف كثيراً إلا أن ذلك لم يكن له قيمة كبيرة نظراً لضرورة تقدم الفرنسيين على طول طريق ابيفيل — هسدن الذى يقع على اليمين . وهذا الخط الدفاعى الـكبير المتد حوالى ٢٠٠٠ ياردة لم يـكن لدى أدوارد أكثر من ١٢٠٠٠ — ١٣٠٠٠ مقاتل فقط لإحتلاله ، ولـكن استطاع أدوارد التصرف بأن ترك المسطحات يدافع عنها عدد قليل من الرجال مما أدى أن العدد الـكلى لجيشه كان كافيا للدفاع عن المنطقة كلها . وقرر أدوارد أن يستخدم أسلوب معركتى تل هاليدون ومورليـكس بأن يستخدم الفرسان مترجلين ، لذلك ترك الخيل والأمتعة الثقيلة فى معسكر محصن فى الخلف بالقرب من النهر . ووضع مجموعة الفرسان الأولى والرئيسية على اليمين فى أسفل الميل وعلى مسافة حوالى ٣٠٠ ياردة فقط من قاع الوادى وكان قائد هذه القوة الأمير الأسود البالغ من العمر ١٧ عاما ، وكان يعاونه كل من جدفرى هاركورت وايرل ورويك . بينما وضعت المجموعة الثانية من الفرسان المخضرمين على اليسار وإلى حد ما فى أعلى الميل تحت قيادة ايرل نورثا مبتون . ووضعت المجموعة الثالثة من الفرسان[1] خلف منتصف الخط بقليل لتـكون احتياطى للقوات .

ووضعت الرماة فى تشكيلات متداخلة ، فوضع جزء منهم فى الوسط للربط بين مجموعتى

---

(١) فرقة الملك . « المعرب »

الفرسان الأمامية بينما وضع جزء آخر على أجناب مجموعتى الفرسان الأمامية وبذا ربطوا الفرسان بالقريتين فأصبح الموقع يرتكز جانبيه على قريتى (كريسى ووواديكورت) ، كما وضع جزء آخر من الرماة على جانبى المجموعة الثالثة لفرسان أدوارد . وقد بلغت النسبة بين الرماة والفرسان الإنجليزية حوالى ٢ : ١ .

وجرى حفر شراك خداعية أمام مجموعة فرسان الأمير الأسود ، أمامركز قيادة أدوارد فكان فى طاحونة هوائية تقع على أعلى نقطة على السلسلة وتبعد حوالى ٧٠٠ ياردة من قرية كريسى ، ومن هذه البقعة أستطاع أدوارد السيطرة على كل الخط الإنجليزى علاوة على طريق الإقتراب المنتظر الفرنسى وهو الطريق القادم من ابيفيل .

وبعد أن تم للقادة توزيع وتحديد أماكن قواتهم وتمركزهم فى الخط الدفاعى ، أمتطى الملك أدوارد حصانه مارا على طول الموقع الدفاعى مشجعا جنوده ، لأن عرشه وملكه يعتمد على تصرف قواته فى هذه المعركة ، وحتى حلول منتصف اليوم لم يكن هناك أى أثر للعدو ، وبناء عليه منح أدوارد رجاله إذنا بترك الصفوف لتناول وجبة من الطعام . وترك كل رامى قوسه وجعبة السهام فى مكانه بينما ترك كل فارس خوذته . وموعد صلاة المساء أى حوالى الساعة ٤½ مساء أنهمرت الأمطار فجأة ، فهرع الرماة لتغطية اوتار أقواسهم ، وكان لا يزال لا يوجد أثر للعدو .

أما فيليب والذى ضللته مخابراته ، أعتقد أن الإنجليز بالقرب من نهر السوم ، وأصدر أوامره بالتقدم من ابيفيل عند الفجر ، ولكن افراد استطلاعه اخذوا يبحثون عن الإنجليز فى الإتجاه الخاطىء . ولم يتقدم الفرنسيون إلا بعد إنتهاء المطر مباشرة آتين من ابيفيل فى اتجاه مجرى ماى . وعندما ابصرهم ادوارد من مركز قيادته فى الطاحونة امر بالنفير فى الأبواق وهرع الجنود الإنجليز إلى أماكنهم .

أما جيش فيليب الإقطاعى فكان تحت قيادة مجموعة لامعة من الأمراء والنبلاء ، فكان بصحبته كل من الملك جون (ملك بوهيميا) وابنه شارل (ملك الرومان) وجيمس الثالث (ملك مينوركا) والكثير من فرسان فرنسا ومنطقة الراين المشهورين . وكان أفضل قوات الجيش الفرنسى هى فرسان الحرس الملكى و ٦٠٠٠ جندى مرتزق من حملة

النشاب من جنوا ، أما العدد الكلى للجيش الفرنسى فهو غير مؤكد على وجه التحديد ولكن يتراوح بين العدد الذى أوردته السجلات الإنجليزية المعاصرة للتفاخر وهو ١٠٠ر٠٠٠ وبين العدد الذى أقترحه البروفسير لو كفظ لماء الوجه أى ١٢ر٠٠٠ . أما أنا فأعتقد أن الرقم ٤٠ر٠٠٠ هو الرقم الذى يمثل تقريباً الحقيقة .

وقد لوحظ من على بعد أن الجيش الفرنسى المتقدم يسوده بعض الإضطراب وسوء النظام ، ومن الممكن أن يكون ذلك سبب تغييرهم اتجاه سيرهم ، وساء الموقف أكثر عندما شاهد فيليب الحشد والنظام الإنجليزى مما أدى أن قرر من الأفضل تأجيل المعركة حتى اليوم التالى ، وأطاعت مقدمة الجيش هذا الأمر بينما لم تطعه المؤخرة . ووجد رجال المقدمة أنفسهم مجبرين على مواصلة التقدم تحت ضغط المؤخرة وبدون أوامر محددة وواضحة . وأكثر من ذلك كان الاقتراب الفرنسى نحو جبهة الإنجليز فى زاوية مائلة مما أضطرهم إلى الدوران لليسار نصف دورة فى آخر لحظة حتى يمكنهم مواجهة الخط الإنجليزى فى شكل مباشر . ولم يمكن تجنب عدم الإنتظام خلال هذا الدوران الذى وصل إلى حالة من الفوضى فى الميل الأخير . وغير معروف بالضبط التشكيل الفرنسى الذى واجه الإنجليز بل أنه من أكثر الأمور غموضاً . ولكن من المحتمل وعلى أساس نظرى أن الفرسان الفرنسية انقسمت إلى ثلاث مجموعات ، قاد المجموعة الأولى ملك بوهيميا وكونت الينكون بينما قاد المجموعة الثانية الكونت بلوزا ودوق اللورين ، وقاد المجموعة الثالثة الملك فيليب نفسه ومعه ملك الرومان، وفى المقدمة سار حملة النشاب من جنوا . وواجهت شمس الغروب المنخفضة أعين الفرنسيين ، الأمر الذى يشكل خطراً جسيما فى المعركة سواء أكانت معركة دفاعية أو هجومية . وقد قمت باتباع هذا الأسلوب التكتيكى فى معركة خطر مارث فى مارس ١٩٤٣ حيث دفعت هجومى المضاد ضد آخر مواقع الألمان القوية عند النهاية الشمالية لتلال «ماتماتا» ليهاجم من اتجاه الشمال الشرقى بعد الظهر ، فى الوقت التى كانت فيه أشعة الشمس الإفريقية آخذة فى الرحيل ، وبكل بريقها وسطوعها ينفذان مباشرة فى أعين الألمان .

ولنعد الآن إلى فيليب وإدوارد ، فنجد أن الإنجليز أنتظروا فى سكون بينما تقدم الفرنسيون وهم يطلقون صيحات المعركة وهم واثقين على الأقل من تفوق عددهم . وعندما

أصبح رماة جنوا فى مدى القوس الطويل[1] ، أطلقت أول قصفة انجليزية ، وما هى إلا دقائق حتى بدأ رماة جنوا فى التخبط والاضطراب وساد الذعر عندما أطلق الإنجليز مدفعهم[2] . وتقول الوثائق « أن المدفع أحدث صوتاً كصوت الرعد » .

ولقد كان ذلك حدثاً هاماً وخطيراً بالرغم من أن تأثير المدفع لم يتجاوز مجرد أحداث صوت كصوت الرعد . وبالرغم من هذا واصل فرسان الفرنسيون تقدمهم خلال رماة جنوا التى أصابها الهرج مما أدى أن الخيل وطئت الكثير من رماة جنوا ، بينما استمر القوس الطويل فى عملية إبادة الفرسان الفرنسية .

وتقول الوثائق « ترك الرماة الإنجليزية سهامهم تطير حرة كيفما اتفق ، ولم يضيع لهم سهماً واحداً ، لأن كل سهم ينطلق كان يعنى نهاية رجل أو حصان . . وهكذا سقط الفرسان الفرنسية قتلى أو جرحى دون أن يبصروا قاتليهم » .

ومن المرجح أنه لم يصل رجل واحد من المجموعة الأولى للفرسان الفرنسية إلى مسافة الإلتحام مع الإنجليز ، ولكن الموجة الثانية للفرسان الفرنسية هاجمت وهى تخوض فى جثث وأشلاء الموجـــة الأولى . ولم يكن استمرار المعركة يعنى فى الواقع أكثر من مواصلة حشود الفرسان الفرنسية بهجمات انتحارية ، وقد عرف الإنجليز بعد المعركة أنهم دمروا من بداية المعركة حتى نهايتها حوالى ١٥ هجوماً فرنسياً متوالياً . وباندفاع مستميت وشجاعة يائسة أنطلق الفرنسيون إلى أعلى الميل محاولين فى كل مرة الوصول إلى فرسان الإنجليز بطريقة بعيدة عن الطرق التقليدية ، ويرجع السبب الفعلى إلى أنه لم يكن فى استطاعتهم أو خيلهم مواجهة سهام الإنجليز . فالرماة الإنجليزية يطلقون أولا قصفاتهم لبعثرة العـــدو وإبطاء قوته الدافعة ، وبعد ذلك يقصفون أجنحة المهاجين . واستطاعت مجموعات قليله من أشجع الفرسان الفرنسية مثل جماعة أتباع ملك بوهيميا ، من الوصول إلى مواقع الفرسان الإنجليزية ولكن ليقتلهم رجال أكثر عدداً وراحة منهم . وقد عرقلت كل موجة هجوم فرنسية تاليه البقايا المنسحبة من الهجمة السابقة واستمرت الهجمات

(١) قبل أن يتمكن رماه جنوا من استخدام سلاحهم ضد الإنجليز .

(٢) كان أول مدفع يستخدم فى معركة هامة . « المعرب »

الفرنسية لوقت طويل حتى أنها استمرت بعد حلول الظلام ، ولكن أكثرها كان عشوائياً وبدون تأثير فى حين ظل الحائط الإنجليزى المدرع ثابت دون أن يضطرب أو يتذبذب .

وراقب أدوارد الواثق من أسلوبه التكتيكى سير المعركة من طاحونته ، وفى المساء دفع مجموعة الفرسان الموجودة على اليسار إلى أسفل قليلا جاعلا إياها تدور لتواجه الجنب الفرنسى الأيمن ولكى ترفع الضغط عن فرسان الأمير الأسود ، ولكن إدوارد لم يحتاج أبداً لإستخدام أحتياطيه الذى ظل فى مكانه فى الوسط . وقد أبقى أدوارد جميع قواته فى حالة تأهب كامل طول الليل ، لأنه لم يدرك الموقف الحقيقى حتى هذا الوقت . وانتهت المعركة ولم تحدث أى مطاردة للقوات الفرنسية . وفى ٢٧ أغسطس كان الضباب منتشراً وأمضى الإنجليز هذا اليوم فى تطهير ميدان القتال .

نهاية عصر الحصون المنيعة

إذا ألقينا نظرة على معركة كريسى لوجدنا أن جيشاً إنجليزياً مدرباً ومسلحاً جيدا وواثقاً من نفسه ويقوده قائد مجرب وخبير تقريباً بمعظم أساليب التكتيك الجديد لهذا العصر ، أستطاع أن يلحق الهزيمة بالجيش الفرنسى الأكبر منه عددا ولكنه حشد على عجل فى نفس الوقت غير مدرب ومتعدد الأشكال والجنسيات ومتأخرا عن زمانه علاوة على قيادته الغير حازمة .

وعلى كل كان السبيل الوحيد الحكيم الذى يجب أن يتخذه فيليب هو التوقف خلال ليلة ٢٦ أغسطس وفى الواقع قد أمر به فعلا ولكن كانت لدى بعض مرؤوسيه أفكارا أخرى . وعلى العموم فمن الواضح أن فيليب كان يفتقر إلى أحكام قبضته على جيشه وهى ضرورية جدا وخاصة فى المعركة التصادمية .

ونتج عن ذلك أن اندفع الجيش الفرنسى دون أن يفتح فى تشكيل المعركة المناسب وأيضاً بدون السيطرة الضرورية فى المعركه . ومن الناحية التكتيكية كانت معركة كريسى القمة المنطقية لسلسلة الإنتصارات التى حققتها حملة الأقواس الطويلة منذ معركة قنطرة أروين أى منذ ٦٤ عاما . واتبع إدوارد انتصاره فى كريسى باستيلائه على كاليه[1] . ولكن كانت

(١) كانت رأس شاطىء عسكرى وتجارى مفيد للانجليز لـ ٢٠٠ عاماً مثل جبل طارق فى العصور التالية . « المعرب »

النتيجة الاستراتيجية لمعركة كريسى فى حرب المائة عام هى معنوية فوق كل شىء ، فقد برز الإنجليز فى شكل الشعب العسكرى القيادى لأوروبا ، وأصبح واضحاً أنهم لن يتخلوا عن مغامراتهم فى فرنسا حتى يتمكن الفرنسيون من إيجاد وسيلة لطردهم خارجها .

وقد ظل إدوارد الثالث قائداً عاما للانجليز حتى عام ١٣٦٠ وهى السنة التى هدأت فيها ثائرة الحرب بعض الوقت نتيجة لمعاهدة كاليه . ومما يذكر أن الأمير الأسود حقق نصراً عظيما عن بوايتيه عام ١٣٥٦ . وظلت معنويات الجيش الإنجليزى عالية كما سبق . وقد ظل إدوارد الثالث ينتهج إستراتيجية ثابتة وواحدة لمدة ٢٢ عاما ، وهى فترة طويلة تماثل مدة الحرب النابليونية ، بينما كان جنوده يتبعونه واثقين دائماً من قيادته . وأكثر من ذلك فكان الترابط والولاء من أبرز مظاهر أفراد قيادته العليا الذين منهم دربى ووريك ونورثامبتون وهوكود وشاندوس.

إلا أن الحرب تجددت مرة ثانية عام ١٣٦٩ ، وجرى قتال متقطع عديم الجدوى ، بل أن معظم هذا القتال كان عبارة عن قطع الطرق والسلب والنهب . واستمر هذا الحال حتى جاء غزو هنرى الخامس عام ١٤١٥ مغيرا من مظهر هذا القتال . وكانت الشخصية السائدة والمسيطرة قبل قدوم هنرى هى نبيل فرنسا « برتراند دى كويسلين » وكانت أستراتيجيته فى الحذر مع تجنب المعارك الكبيرة الضارية والتركيز على الإنقضاض على الطوابير الإنجليزية المنعزلة ، مما أدى فى عام ١٣٧٧ إلى انقاص الممتلكات الإنجليزية بجنوب فرنسا إلى مجرد منطقة لا يتجاوز نصف قطرها ٢٠ ميلا حول بوردو . وعلى العموم لم يعتن الفرنسيون بتجديد جيشهم ليلاحق بركب التطور فى نفس الوقت رفض الإنجليز الذين لم يهزموا فى معركة حقيقية التخلى عن غزوهم لفرنسا . وكثيرا ما تقدم قواد انجليز بطابور من الرجال خلال ارض العدو، ولم يتعدى أكثر من مرور تدميرى، وأكثر هذه المسيرات شهرة كانت مسيرات جون جنت عام ١٣٧٣ ، فقد تحرك من كالية ومعة ١٠٠٠٠ مقاتل ليخلص جيين ولكن الشتاء هاجمه أثناء مسيرته فى السلسلة الجبلية فى وسط فرنسا ، إلا أنه أستمر فى التقدم عبر الوادى ليصل إلى بورد وبعد أن قطع ١٠٠٠ ميل فى ٥ أشهر ونصف ، وقد فقد خلال هذا التقدم نصف جيشة دون أن يشتبك فى معركة واحدة .

وإلى حد ما فقد حدث بعض التطور فى تكتيكات ودروع الفرسان الفرنسية بعد معركة كريسى ، وذلك للمحاولة للتغلب على مشكلة السهام الإنجليزية . وعلى عام ١٤٠٠ إكتملت عملية النقل من الزرد إلى الدرع المصفح وأصبح الفارس الفرنسى فى داخل الدرع من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ولكن كان معنى تحقيق مطلب الأمان والوقاية فقد عنصر خفة الحركة والذى يفوق فى أهميته أى عنصر آخر .

فالأكثار من دروع الوقاية معناه تحمل الجندى الراكب أثقالا تجعله عاجزاً عن الحركة. وفى معركة بواتييه عام ١٣٥٦ قام الملك جون (ملك فرنسا) بمثل ما قام به النمساويين فى معركة سمباك وذلك بأن أمر فرسانه بالقتال مترجلين وكانت النتيجة هزيمة نكراء له وللنمساويين .

وقد حاول جون أن يهزم المشاة بنفس أسلوبها ولكن بدون أن يفهم كيف تكسب المشاة ، ويعنى هذا أنه ضحى بأثمن ما لديه من عناصر خفة الحركة والصدمة . وعلى أى حال ظل الفرسان الفرنسية تعمل مترجلة لمائه عام لاحقة ، كما نبذ استخدام الرمح . وفى معركة أجنكورت لم يجد رماة الإنجليز [1] أى صعوبة فى هزيمة الفرسان الفرنسية المترجلة المنقادين معا فى شكل قطيع أخذ يتعثر فى الأوحال ، وفى النصف الثانى من حرب المائة عام أى من عام ١٤١٥ بدأت المدفعية تؤثر على شكل الحرب ، وتطور المدفع من شكله القديم الذى يشبه الفازة وأصبح ذو شكل إسطوانى ، كما أن تقدم طرق سبك المعادن جعل من الممكن صناعة مدافع قوية وكبيرة بدرجة يمكنها من قذف مقذوفات زنة ٢٠٠ رطل . وفى مستهل حملة هنرى الخامس ضد فرنسا عام ١٤١٥ قام بحصار هارفلير ، وعندما فشلت الأساليب التقليدية فى تقويض الأسوار ، لجأ إلى المدفعية ، وكان لديه ١٠ مدافع ، منهم ثلاثة بصفة خاصة حجمها كبير وقد سمى كل مدفع بأسم معين مثل « لندن » و « بنت الملك ». وفى حصار هارفلير نظم كبير المهندسين جيلس عملية قصف منظمة وثابتة ليلا ونهارا ، وركز القصف بصفة خاصة على الأسوار المحيطة بالبوابة . وبعد ٢٧ يوما كانت البوابة والحصن الأمامى قد أصبحا حطاما ، وبعد ذلك أشعل جيلس النار فى أجزاء السور الخشبى بأستخدام دانات حارقة . وعندما أقتحمت

---

(١) فى هذه المعركة أصيب الرماة الإنجليز بالدوسنطاريا . « المعرب »

القوات الإنجليزيه المدينة من مكان الصدع الذى أحدثته المدفعية استسلمت المدينة . ومع تحطيم مدفعية هنرى لأسوار هارفلير أنقضى عهد الحصون المنيعة ، ولكن لم يحدث حتى نهاية القرن ١٥ رد فعل مضاد من المهندسين العسكريين .

ظهور جان دارك

وبحلول عام ١٤١٩ ، كان هنرى الخامس قد أعاد الإستيلاء على نورماندى ، ولكنه مات عام ١٤٢٢ .

ومنذ وفاته حتى ١٤٥٣ استطاع الفرنسيون تدريجياً طرد الإنجليز خارج الأراضى الفرنسية .

وكانت جان دارك إحدى الشخصيات القائدة فى إلهام الفرنسيين ورفع معنوياتهم لاسترداد أرضهم .

وكانت جان دارك فتاة قروية قدمت نفسها إلى بلاط الملك الفرنسى الكسول شارل السابع . وعندما قابلت جان دارك الملك أخبرته أنها تعلم كيف تكسب الحرب . ويبدو أن ظهورها فى نفس الوقت الذى ضرب الحصار حول أورليانز فى عام ١٤٢١ قد أثار حمية الفرنسيين وهبوا لتطهير وسط فرنسا من الإنجليز وقد قال الدوق النيكون أن جان دارك كانت خبيرة فى تمهيد المدفعية .

وأخيراً . . أسرت القوات الإنجليزية جان دارك وأحرقت حية فى عام ١٤٣١ . وعلى كل لا يمكن الجزم ما إذا كانت لدى جان دارك مقدرة إلهية أو أنها كانت مجرد آلة فى أيدى القادة الفرنسيين ، ولكن هناك شىء واحد واضح وهو أنها أعادت بالتأكيد الروح المعنوية للجيش الفرنسى والتى كانت حطمتها السلسلة الطويلة من الكوارث ، ويبين هذا الأمر أن جان دارك كان لديها عبقرية سيكولوجية .

القلاع المتحركة

وقد كان تفوق الفرنسيين فى المدفعية هو السبب الرئيسى لنجاحهم فى الحرب . ومن رجال المدفعية الأوائل البارزين هو « جان بيرو » الفرنسى ، وقد ذاعت شهرته لأول مرة فى الحصار الفرنسى الناجح لمايو فى عام ١٤٣٩ ، وكما يقال أنه فى عامى ١٤٤٩ — ١٤٥٠

أى فى عام واحد قاد « بيرو » وشقيقه ٦٠ عملية حصار ناجحة خلال استعادة فرنسا للنورماندى .

وفى معركة كاستيلون عام ١٤٥٣ كان لدى الجيش الفرنسى تحت قيادة بيرو ٢٥٠ مدفعاً . وتكبد الإنجليز خسائر فادحة بسبب نيران المدفعية الفرنسية المتقاطعة والأمامية . وعلى العموم لقد استخدمت مدفعية الميدان قبل هذا الوقت بعدة أعوام فى شرق أوروبا كوسيلة ثالثه تستخدمها المشاة لهزيمة الفرسان الثقيلة .

وفى بوهيميا تولى جون زيسكا القيادة العسكرية لحركة الهسيين[1] عام ١٤١٩ وبعد عدة اشتبا كات فى شوارع براغ انسحب زيسكا ومعه ٤٠٠ من أتباعه و١٢ عربة تحمل المدافع إلى معقل الهسيين المنيع فى الجنوب عند « طابور » .

وعند قرية سدومر ألتقت قوات زيسكا مع ٢٠٠ فارس ملكى ، وهناك نشر زيسكا قواته بقدر ما أمكن أن توفر له الأرض من حماية لأجنابه ، كما نظم عرباته التى تحمل المدافع فى شكل متشابك مكونة حصناً ، وكان النصر من نصيب الهسيين .

ومع عام ١٤٢٠ تم تنظيم مدينة « طابور » فى مجتمع يعيش فى حالة استعداد دائم للحرب. وأعلن البابا الحرب المقدسة لإستئصال جذور الهسيين، وتجمعت لهذا الغرض قوات كاثوليكية كبيرة .

وفى سنوات الحرب التالية ، بدأ زيسكا يظهر كمفكر عسكرى ثاقب الفكر . وضرب عرض الحائط بأسلوب العصور الوسطى الذى يتضمن عدم إمكان هزيمة الفرسان وقداستطاع هزيمتهم بالموارد التى كانت تحت يديه .

وقد لمعت له فكرة عمل عربة محصنة عندما شاهد الفرسان وهم بلا حول ولا قوة أمام التحصينات ، وقد استخدم فى ذلك عربات الفلاحين العادية ، وركب المدافع على ظهرها ورتبها فى شكل دائرى ، تماما كما فعل الرواد الأوائل الأمريكيون بعده بـ ٤٠٠ سنة .

---

(١) كانت ثورة دينية ووطنية وشعبية . « المعرب »

وفى الدفاع فقد أعطى نظام العربات المحصنة المتشابكة والمدافع عنها بالأسلحة النارية مزايا القلعة الحصينة علاوة على خفة الحركة .

وكان لدى زيسكا عين ممتازة فى اختيار الأرض المناسبة والتى عادة ماتكون قمة تل صغير وقد ملئت الثغرات بين العربات بحواجز تحمل معهم ، وكل عربة تحمل مدفعين صغيرين أو ثلاثة ، أما المدافع الكبيرة فركبت على عربات خاصة . ولقد كان زيسكا أول قائد استخدم مدفعية الميدان فى تنظيم وأسلوب منذ تجربة الإسكندر الأكبر فى « هايدباس» . وعلى كل فكان الجيش الهيسى يتكون من عدد بسيط من الفرسان للاستطلاع ومشاة من حملة النشاب ، وبالرغم من ذلك كان الجيش منظما بطريقة تتميز بالكفاءة والفاعلية .

وفى عام ١٤٢٠ ، عندما رضى زيسكا عن مستوى تدريب جيشه بدأ التحرك إلى براغ مستخدما نظامه الجديد ، وعند « فيتكوف » هزم الملكيين .

وفى نهاية الحملة عام ١٤٢١ كان الهسيون يسيطرون على معظم بوهيميا . واستمرزيسكا فى القيادة بالرغم من إصابته بالعمى نتيجة سهم أطلق عليه ، مخططاً لمعاركه على أساس المعلومات الدقيقة الصحيحة عن قوات العدو وأماكنها والتى كان يعرفها من إجابات معاونيه رداً على أسئلته .

وفى عام ١٤٢١ هزم الصليبيين عند تل فلدار ، وفى عام ١٤٢٢ هزم الملك عند كونتاهوراً .

وفى عامى ١٤٢٣ — ١٤٢٤ حدثت عدة خلافات ومنازعات بين الهسيين ، واستطاعت مجموعة الطابوريين بقيادة زيسكا هزيمة مجموعة الكالكستين (العشاربنين) ، واستمرت الحروب حتى عام ١٤٣٦ عندما اتفق الهسيون مع روما على شروط معقولة .

وفى عام ١٤٢٤ توفى زيسكا بمرض الطاعون وعمره ٤٨ عاما فقط ، واجتاح كل الجيش حزن عميق ، حتى أن جنوده بعد موته أطلق عليهم « اليتامى » . وبدون شك فقدوا قائداً عظيما ، فقد كان زيسكا رجلا شجاعاً ذا شخصية فذة وعلى خلق عظيم ، وقد حرر نفسه من قيود التقاليد القديمة ، واستطاع بعبقريته أن يستغل مصادر قوته المحدودة لإنتاج أسلوب تكتيكى منظم جديد ناجح .

وقد أثر تأثيراً فعالا على الأسـلوب التـكتيكى والاسـتراتيجى فى شرق أوروبا لمدة ٢٠٠ عاماً .

انقضى القرن ١٥ فى تثاقل بينما بدأ البارود فى قلب كل التقاليد والأساليب التـكتيكية رأساً على عقب .

ومن الأسلحة الثلاثة التى دمرت الفرسان الثقيلة (الرمح الطويل والقوس الطويل والمدفعية » ولـكن الأخيرة ظلت على قيد الحياة فترة أطول من الباقين . وانتهى العمل بالقوس الطويل كسلاح رئيسى للانجليز بمرسوم من مجلس شورى الملـكة أليزابيث الأولى عام ١٥٩٥ . أما حملة الرماح الطويلة السويسرية فقد ظلوا على حالهم لفترة من الوقت فى الجيوش النظامية الأوروبية حتى القرن ١٧ .

وعلى أى حال فقد تساوى كل من حملة الأقواس وحملة الرماح الطويلة فى كونهم أجداد رجل المشاة الأوروبى لما بعد العصور الوسطى ، فالبندقية ذات السونـكى جاءت من التزاوج بين مبدأ القذف والرمح . كما أن التحالف بين البارود والمواد الأخرى للدولة أدى إلى بدايات الحرب الحديثة .

الفصل العاشر

عظمة أسبانيا

بوابة الأطلنطى (أنظر اللوحة رقم ١٩)



جونز الفو القرطبى

كانت أسبانيا خلال القرن ١٦ هى الدولة القائدة فى تاريخ الحروب الأوروبية بعد أن كانت بلاداً غامضة ومتخلفة خلال العصور الوسطى .

ففى بداية القرن حصلت أسبانيا تحت حكم فيليب وإيزابيلا على وحدتها كما توفر لها هدف واضح جرىء . ووصلت إلى ذروة بأسها فى ١٥٥٠ تحت حكم شارل الأول ، وظلت محتفظة بأهميتها تحت حكم فيليب الثانى بالرغم من أنه فى عام ١٦٠٠ بدأت الشمس فى الأفول عن إمبراطوريتها المترامية .

وقد كان لأسبانيا دوراً رئيسياً فى كل الحروب الوراثية — الوطنية العظمى والتى دارت فى أوروبا أبان القرن ١٦ مثل الصراع بين الفلواز والهيبسبرج (١٤٩٤ — ١٥٥٩) والحروب الدينية الفرنسية (١٥٦٢ — ١٥٩٨) وحرب الاستقلال الهولندية (١٥٦٨ — ١٦٠٩) ، وأكثر من ذلك ففى الهجوم التجارى الجديد للاستعمار الأوروبى ، فكانت السفن الأسبانيه وفى أعقابها السفن الإنجليزية هى المسئولة عن التطور والتوسع الهائلين للأفق الاستراتيجى والسياسى الأوروبى والذى شمل كل من الأطلنطى والقارة الأمريكية المستعمرة حديثاً .

ومرة أخرى أخذت أسبانيا الدور القيادى فى التطور الذى ساد الأسلوب العسكرى البرى والبحرى سواء من الناحية التكنولوجية أو التكتيكية . وفى ذلك الوقت برز سؤلا هام وهو ماهو مستقبل المدفعية وأثرها على القتال ؟ .

وفى معركة جركينولا عام ١٥٠٣ أظهر بوضوح جونز الفو القرطبى والمعروف لدى الأسبان بالقائد العظيم أن المدفع اليدوى (بندقية اليد) والمعروف فى ذلك الوقت بإسم « القربينة » سيظل لسنوات عديدة هو السلاح الرئيسى المسيطر على المعركة .

وفى تلك الحقبة ، أدى تطور السفن الشراعية الكبيرة المسلحة بالمدافع أن استطاع الأوروبيين القيام بغزوات لا تقاوم فى بحار العالم .

وهذه السفن وصفها البروفسير كيبولا بأنها عبارة عن «جهاز متكامل سمح لطاقم صغير نسبيا أن يسيطر على هذه الحشود من الطاقة الساكنة ويحولها إلى طاقة حركة وتدمير» وهنا فسوف نجد أن سير فرانسيس دريك كان من أعظم المبدعين فى كل من مجالى الملاحة والتكتيك لهذه السفن الثورية .

وقد أصبحت الحروب البرية بالكامل تقريباً بعد عام ١٥٢٥ عبارة عن أعمال حصار ومناورة مع تجنب المعارك المفتوحة ذات المدى الكبير . وقد برز فى الجزء الأخير للحروب الأوروبية من القرن ١٦ ثلاثة قواد من أعظم قادة هذه الحروب وهم :— اسكندر بارما وأمبروجيو سبينولا وموريس ناسو وكان الإثنان الأولان فى خدمة أسبانيا .

وعادة ، يكون التفسير الذى يوضح كيف أرتقى أى شعب إلى العظمة العسكرية فى جوهرة أمراً غامضاً ومبهماً ، ولكن بالنسبة لعظمة أسبانيا فكان هناك سبب أو سببين لذلك .

فقد كانت قسطلة[1] أرضاً قاحلة جرداء تنتج قوما أقوياء فى صلابة ، كما أن الأسبان قد انتهوا تو هم من عمل استغرق ثلاثة قرون وهو إعادة فتح بلادهم من العرب .

وفى عام ١٢٤٨ أستولى الأسبان على ميناء سيفيل والذى يعتبر بوابة الأطلنطى ، وفى عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر مراكز المقاومة المغربية .

وبذلك أصبح وراء الأسبان قوة دافعة تدفعهم للنجاح العسكرى .

وقد ركز الاسبان كل طاقتهم للحرب ، ولم تؤثر احتياجاتهم الاقتصادية على ذلك ،

---

(١) قسطلة إحدى مقاطعات أسبانيا . « المعرب »

لأن معظم التجارة كانت لاتزال فى ذلك الوقت فى أيدى المغاربة ، علاوة على أن الاقتصاد الريفى فى أنحاء البلاد لم يكن فى حاجة إلا لقدر ضئيل من العمالة ، يضاف إلى ذلك أن الأسبان كانوا يتوقعون أن الحرب ستكون أمراً مريحاً .

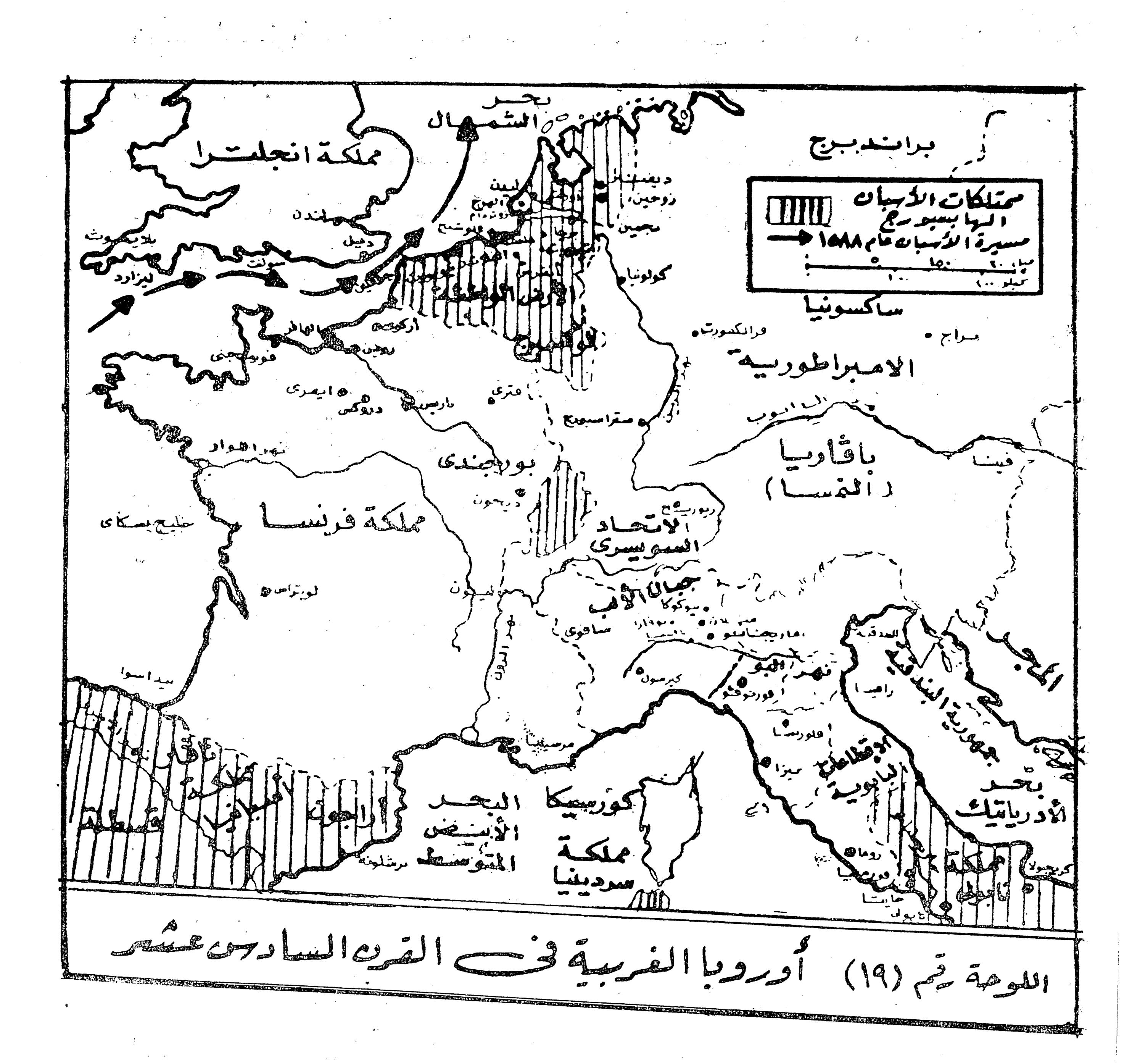
اضرب واهرب (أنظر اللوحة ١٩)

وخلال الحرب الإيطالية والتى نحن الآن على وشك مناقشتها ، فقد أمكن ولأول مرة ظهور اتجاه أوروبى عصرى واضحاً ومميزاً نحو الحرب،فقد كان هذا عصر الواقعية السياسية وعصر ميكافيلى ومبدأ « مصلحة الدولة العليا » . وحدث تطور بالنسبة للفصل فى المنازعات والتى كانت قاصرة على الكنيسة وأنشأت عدة قوانين دولية ودبلوماسية مع عودة الخدمة السرية ، وبالرغم من كل هذا فقد إندثرت الأساليب القديمة بصعوبة بالغة . وعلى كل فقد ظلت الأسلحة النارية ينظر إليها ولمدة طويلة على أنها خطر يهدد بجبن وبصورة لا أخلاقية مبادىء الكنيسة المسيحية والنظام الاجتماعى ، وبالرغم من هذا فقد استخدمت هذه الأسلحة وصنعت .

وفى عام ١٥٠٢ لخص روبرت بلزاك فى نظريته العسكرية الاتجاه الجديد ، وتم ذلك من وراء ستار من التفسير الملطف ولكن بطريقة أخلاقية ، فائدة استخدام الأسلحة النارية والتشكيلات الحديثة ، وضرورة القسوة فى مثل هذه الأمور للحفاظ على النظام . وقد شجع بلزاك المحافظة على المعاهدات ، ولكنه حذر قرائه بألا يعتمدوا على خصومهم من القوى الأخرى . وقد قال بنفس التحرر من العاطفة « إن النجاح فى الحرب يعتمد على أن يكون لديك أمولا كافية » .

وفى عام ١٤٩٤ قام شارل الثامن ملك فرنسا بغزو إيطاليا ، وقد ألتقى بمقاومة طفيفة قبل احتلاله لفلورنسا .

ويرجع سبب ضعف مقاومة الشعب الإيطالى للفرنسيين أن « سافونارولا » وصفهم بأنهم مثل الأشوريين القدامى أى أنهم « سيف الله » . وتقدم شارل إلى روما ، وفى العام التالى وبعد أن استولى على نابولى قرر أن يخلص نفسه من إيطاليا . وأثناء تقدمه شمالا مزق الفرنسيون جيشاً إيطاليا عند « فورنوفو » .



اللوحة رقم (١٩) أوروبا الغربية في القرن السادس عشر

ومهما كانت الحجج والتفسيرات ، بأن الدوافع التى حركت شارل فى الفترة(١٤٩٤— ١٤٩٥) وكذا خلفاءه من بعده لويس الثانى عشر وفرانسيس الأول كانت الزهو بقوتهم العسكرية مع إمكانيات سلب الغنائم ونهب الثروات من أمة غنية متفرقة سهلة المنال .

وتفاصيل حروب ٦٠ سنة التالية ستكون فى النهاية قصة مملة تروى غزوات على طريقة «إضرب ثم أهرب » وأشكال من التحالفات المعقدة متغيرة الألوان وتحالفات مضادة تصل إلى أن يقتل الأخ أخاه .

وهذا العدوان الفرنسى لم يؤدى فقط إلى دفع كل الدول الإيطالية الصغيرة إلى الحرب ولكن أثار أيضاً ملك أسبانيا الذى ادعى أن نابولى من ممتلكاته وكذا الأمبراطور الذى كانت له مصالح تجارية تعتمد على تأمين المواصلات فى شمال إيطاليا والألب . وانتهز السويسريون الفرصة التى ستجلب لهم مالا وفيراً بعملهم كمرتزقة ، وقاتلوا مع الجانبين بدون تمييز .

وبعد عام ١٤١٩ تطورت الحروب الإيطالية إلى صراع أوسع بين الفلواز والهابسبورج وذلك عندما أصبح الملك شارل الأول ملك أسبانيا أيضا الإمبراطور شارل الخامس بالإضافة إلى كونه حاكما للبلاد الواطئة ولديه إدعاء يجعله يطالب بحكم بورجندى وشمال إيطاليا . ولكن من وجهة النظر العسكرية فالإهتمام بهذه الحروب مركز على بعض المعارك والحملات المعينة خلال المرحلة الأولى فى الصراع الإيطالى .

خدام الوطن

وفى عام ١٤٩٥ أنهى النصر الفرنسى تحت قيادة شارل الثامن عند فورنوفو على جيوش البندقية وميلان المجمعة تحت قيادة كونزوجا ، عصر حروب المرتزقة ، فعبر ٢٠٠ سنة السالفة أديرت الحروب بين المدن الإيطالية بواسطة عصابات من فرسان العصور الوسطى تحت قيادة جنود محترفين بأسم « الكوندتيرى[١] . وأصبح الكثير من حملات تلك الفترة ذو مظهر

(١) الكوندتيرى يعنى قائد جماعة من الجنود المرتزقة وقد أطلق عليهم هذا الاسم فى أوروبا بين القرن ١٤، ١٦ . « المعرب »

« علمى » إلى حد كبير لدرجة أن المعارك لم تكن أكثر من مجرد مناورات تستسلم فيها الجيوش عند ما يظهر من الناحية الفنية أنها قد طوقت أو أصبحت معزولة عن قيادتها . وكانت تلك الحملات ، كما كان يطلق عليها سير تشارلز أومن « مباريات فى الشطرنج تقبل فيها الهزيمة التامة من العدو وبالنذر اليسير من الدماء المسفوكة » ولذلك تلقى الإيطاليون صدمة عنيفة ووحشية عندما عبر الفرنسيون ومعهم المرتزقة السويسريون الألب بنية الأستيلاء على المدن بأقتحامها وذبح الأسرى. وقد نصب الإيطاليون كميناً محكماً عند « فورنوفو » ، ولكن عندما تلقى الإيطاليون الضربة التى وجهها إليهم الفرسان الفرنسية الراكبة[1] عزقوا كما يحدث للقش تحت ضربات شوكة الدراس ، ولكنهم تعلموا درساً قاسياً . وبالرغم من أن بعض قادتهم مثل « بروسبير كولونا » كان يفضل المناورة المعقدة وقد أحتفظ بها إلا أن الإيطاليين لجأوا الآن إلى الأسلوب الواقعى والعملى للحرب ، كما جهزوا أنفسهم بالأسلحة الحديثة والأسلوب التكتيكى العصرى لحملة الرمح وحملة القرابين .

وفى الفترة مابين ١٤٩٤ — ١٤٩٥ فقد أظهر التقدم الكاسح لشارل الثامن على طول إيطاليا صعوداً وهبوطاً ما يمكن أن يعمله جيش حديث مزود بمعدات حديثة للحصار . وخلال السنوات القريبة من ذلك الوقت أدخل « جال دى جويتلاك » تطورات فنية معينه على أسلحة المدفعية ، وقد بهت الإيطاليون عندما رأوا المدفع الجديد[2] . ولكن كانت أهم هذه التطورات هى أدخال عربة المدفع والأكتاف ومرتكز الدوران لرفع المدفع وأيضاً فى أستخدام المقذوفات المعدنية بدلا من القوازف الحجرية . وفى ذلك الوقت كانت أسوار المدن لا زالت عالية حسب نظام العصور الوسطى ، كما كان يدافع عنها حملة القوس النشاب بصورة رئيسية وبالطبع لم يكن فى أستطاعة المدن الأيطالية أن تقوم بأى دفاع فى مواجهة الحصار الذى ضربه شارل .

---

(١) مرة أخرى امتطى الفرسان الخيول ليقاتلوا بها بعد مرور قرن من الكوارث نتيجة لقتالهم وهم مترجلين

(٢) كان المدفع أخف وزناً ومصبوب جميعه من البرونز وتجره الخيول ، مما أمكن لهذه المدافع المحافظة على سرعة تقدم مساوية لسرعة تقدم باقى الجيش ، كما أن النيران كانت تطلق على فواصل زمنية قصيرة جداً . « المعرب »

وكان الفرنسيون أيضاً فى مقدمة الدول الأوروبية فى مجال إستخدام مدفعية الميدان ، ففى معركة فومنى (١٤٥٠) أجبر القصف الغير محتمل لمدفعين فرنسيين (من نوع كولفين) حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز على يبعثرة تشكيلهم ، كما أن الأنتصار الفرنسى عند « رافينا » (١٥١٢) كسب بطريقة مشابهة ، فقد كان الجيش الأسبانى البابوى مخندقا فى مواقع دفاعية ولكنه أجبر نتيجة قصف المدفعية إلى ترك الموقع الدفاعى والقيام بالهجوم مسبباً لنفسه كارثة مروعة . وفى معركة مارنيانو (١٥١٥) لعبت مدفعية الميدان الدور الحاسم فى أنتصار الفرنسيين تحت قيادة فرانسيس الأول على السويسريين ، وأبان ذلك الوقت كان للسويسريين شهرة كبيرة فى اوروبا ، أضف إلى ذلك أن أنتصارهم على الفرنسيين عند نوفارا (١٥١٣) قد عزز ما حققوه من أنتصار على البور جنديين عند كل من جرانسون وموراتـ وقد أنتصروا على الفرنسيين بالقيام بهجوم مخادع لأخفاء تقدم ثلاثة طوابير من حملة الرماح الطويلة فى تشكيل متوازى حيث باغتت فرسان الفرنسيين محدثة دماراً وفوضى شديدة ، وتابع السويسريون أنتصارهم حتى ديجون وهناك أشترى الفرنسيون توقفهم بثمن خيالى . وكتب المؤرخ الفلورنسى جويكارديني يقول : — « لم يحدث قط فى تاريخ الأمة السويسرية أن قررت شيئاً بمثل هذه العزيمة والتصميم ؛ وقد حقق النصر قوات قليلة وبدون فرسان أو مدفعية على قوات كبيرة ومنظمة. وغامر الكثيرون وليس فى أعتبارهم سوى الجرأة والبسالة ليجعلوا من عملهم هذا أعظم بكثير من أعمال البطولة الخالدة المسجلة للرومان» .

وفى ذلك الوقت قرر الإمبراطور مكسيميليان أن الطريقة الوحيدة لهزيمة السويسريين هى التعامل معهم بنفس طريقتهم ، فأدخل فى جيوشه فرقا من حملة الحراب والتى سماها « خدام الوطن» . وكان الأختلاف الوحيد بين الألمان والسويسريين هو فى طريقة إستخدامهم للحربة ، فالألمان يحملونها فى وضع منخفض ثم يوجهونها عند الطعن الأعلى ، بينما أمسكها السويسريون فى وضع متوسط وعند الطعن كانوا يوجهونها لأسفل قليلا . وسرعان ما كشف الألمان النقاب عن نزعاتهم للقتال كمرتزقة مثل السويسريين تماما .

القربينة

وعلى أى حال ، كانت نوفارا آخر نصر بارز لحملة الرماح الطويلة السويسرية ، كما عرفتهم

حملة فرانسيس الأول (١٥١٥) بمستقبل مختلف . فقد عبر فرانسيس الأول وجيشه جبال الألب ماراً بمنطقة كول دى أرجنتير العالية ليفاجىء عدوه بظهوره بغتة فى مؤخرته ومعه ٣٠٫٠٠٠ مقاتل و ٧٢ مدفع . وعند ماريجنانو كانت لديه قوة متفوقة جداً للصمود أمام مرتزقة ميلانو الذين يعملون فى صفوف السويسريين ويرجح أن السويسريين لم يكن لديهم أكثر من ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، وكالعادة بدون فرسان . وعلى أى حال كان تنظيم السويسريين يسوده الأضطراب نتيجة لأضاعتهم يوم أو يومين فى مناقشة أقتراح فرانسيس بضرورة تسليمهم دوق ميلانو له، وكان هناك نسبة كبيرة من قادتهم موافقين على ذلك ،فى ذلك الوقت كان جزء كبير من القوات أنسحب ، أما الباقى فقد جمعوا قبل المعركة مباشرة. وقد دارت هذه المعركة على مدى يومين ولم تكن سوى عملا عشوائياً مضطربا ، ولكن المبدأ الرئيسى الواضح والذى أستطاع الفرنسيون هزيمة السويسريين به هو إيقاف هجوم حملة الرماح السويسرية ثم صدهم بقصفات متعاقبة من مدفعية الميدان وهجمات الفرسان .

وكانت « ماريجنانو » قاسية للسويسريين ، ولكنها لم تكن معجزة حربية بارزة لأن الفرنسيين كانوا متفوقين عدديا بنسبة ٢ : ١ أضف إلى ذلك قيام السويسريين بأنسحاب ماهر من الميدان .

والآن علقت آمال عريضة على مدفعية الميدان ، ولكنها كانت آمال غير مدروسة أو ناجحة . ولقد كان ميكافيلى على حق عندما أشار إلى جمود مدفعية الميدان وعدم توفر خفة الحركة لديها الأمر الذى يجعل أى قائد تكتيكى ذكى قادراً على التعامل معها . وحتى تصبح المدافع أكثر قوة وضراوة فقد صنعت بأحجام كبيرة ، وكان هذا أمراً سليما إذ كان الغرض تحطيم الأسوار ، ولكن لم يكن هناك حتى الآن فرق مميز بين المدافع التى تستخدم فى الحصار . وحتى القرن ١٧ لم يطرأ أى تطور على مدفعية الميدان سواء من حيث الحركة أو سرعة النيران .

أما فى بداية الحروب الإيطالية ، فقد تطور أخيرا المدفع اليدوى (القربينة) إلى سلاح ذو طاقة كبيرة جدا . وفى حرب المائة عام كان هذا السلاح غير عملى وغير مؤثر [١] ولكن

(١) كان السلاح ضخما وثقيلا ويتطلب رجلين لتشغيله.

أدخلت عليه الكثير من التطورات والتحسينات ، فأنقص وزنه بحيث أصبح ٣٠ رطل ، وأصبح الدبشك قصيرا بحيث يمكن لرجل واحد أن يسنــــده إلى كتفه ، كما زادت طول الماسورة إلى أكثر من ثلاثة أقدام كما أنقص العيار[1] ، وأعطى هذا بالتالى مدى أبعد ودقة أكثر . ولكن أكثر التطورات أهمية هو أختراع فتيل الأشعال الذى يعمل بالزناد. وقبل ذلك كانت طريقة أطلاق السلاح هى نشر مادة ليفية منقوعة (تسمى الفتيل) فتحترق من غير دخان ، وبما أنها ملامسة للبارود فيشتعل هو الآخر فيقذف بالطلقة . ويتطلب أنجاز هذا العمل إلى ثلاث أيدى وثلاثة عيون على الأقل لأمساك البندقية فى وضع التنشين الصحيح مع أشعال الفتيل . أما الفتيل الذى يعمل بالزناد فقد أعطى المستخدم الفرصة لتزويد قدرته القتالية نتيجة عملية الأطلاق الأوتوماتيكى . واصبحت هذه العملية تتم بمجرد جذب الزناد والمثبت بمشبك الفتيل مما يجعله يضغط إلى أسفل ويشعل البارود فى الماسورة . وقد عرف مدفع اليد المزود بهذه الوسيلة بأسم «القربينة» .

اهم مقاتل فى المعركة

وأول رجل قدر الأمكانيات التكتيكية لرجل المشاة الذى يستخدم القربينة ثم قام بتكملة هذه الإمكانيات بنظام تكتيكى ناجح هو « جونز الفو القرطى الأسبانى» . فى عام ١٤٩٥ أرسل جونزالفو ليدافع عن المصالح الأسبانية فى جنوب إيطاليا ، وكان جيشه مشكلا من حملة القوس النشاب والفرسان الثقيلة وأخرى خفيفة تدعى « جنيتور »[2] مسلحة بالرماح القصيرة . وعند سمينارا هزم بواسطة جيش فرنسى مشكل من الفرسان الثقيلة وحملة الرماح الطويلة وأجبرت هذه الهزيمة جونزالفو على التفكير ملياً ، وخلال بضعة أعوام كان قد غير من طبيعة جيشه بصورة جوهرية .

وقد وصل إلى إستنتاج بأن مفتاح النصر يقع فى إستخدام حملة القرابين ، وبناء عليه زاد من عددهم زيادة كبيرة فى جيشه ، وزودهم بأحدث القرابين كما كان لدى كل رجل يستخدم القربينة أدوات نظافة وكيس رصاص وفتيل وقضيب للتنظيف وبارود فى أنابيب

---

(١) يقصد تصغير حجم القذيفة .

(٢) أنشأت هذه الفرسان الخفيفة أصلا لقتال المغاربة فى أسبانيا الجنوبية . « المعرب »

صغيرة معلقة على حزام عريض للكتف ذوجيوب بالإضافة إلى ذلك سلاحهم بالسيف

وقد لبس الجنود بغرض الوقاية خوذة ولكن لم يستخدموا الإدروعا قليلة أخرى على الجسم وقدر جونز الفو أنه باستخدام عدد كافى من الجنود المسلحين بالقرابين ومحتلين مواقع دفاعية منيعة يمكنهم صد هجوم أى عدد من حملة القوس النشاب أو الرماح الطويلة أو الفرسان ، تماماً مثل ماقام به حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز .و قد كان جنود القرابين يحتاجون إلى تدعيم من حملة الحراب والذين كانوا أحسن المقاتلين فى القتال المتلاحم فى هذا الوقت ، فإذا حدث ونجح العدو فى الإقتراب من حملة القرابين كان على حملة الحراب تدعيمهم ، كما أنهم كانوا ضروريين فى الهجوم المضاد . ووجد أن أهم أنواع الخيالة هى الخيالةالخفيفة والتى تفيد فى الإستطلاع ومناوشة ومضايقة العدو،فاحتفظ بعدد منها فى جيشه .

وعند « كريجنولا » فى عام ١٥٠٣ أختبر جونز الفو نظامه الجديدضد الفرنسيين . وفى هذهالمعركة تخندقت وحدات المشاةالأسبانية[١] فى الميول السفلى لتل مرتفع نوعاً . وأسفل هذه المنحدرات مباشرة كانت تجرى قناة ترتفع ضفتيها وقويت حافتيها بالتراب وأكوام النبات المعترش ليكون فى شكل المتاريس .

وأغوى « جونز الفو » العدو للقيام بالهجوم بأرساله أعدادا وفيرة من الخيالة الخفيفة لمضايقة الفرنسيين وسحبهم للامام . وقامت الفرسان الفرنسية وحملة الحراب بهجوم متهور طائش ظانين أن قوى أندفاعهم سوف تحطم الخط الأسبانى الثابت والذى بدا ضعيفاً ، وعندما دخلوا فى مرمى القرابين الأسبانية فتحت عليهم نار حامية ، وقد لقى قادة الطوابير المتقدمة من الفرنسيين مصرعهم تحت وابل الطلقات ، ومن أفلت من الطلقات سقط فى القناة . وكرر الفرنسيون هجماتهم ، ولكنهم كانوا يحصلوا على نفس النتيجة بالإضافة إلى أن إحدى الطلقات أودت بحياة قائدهم « نيمور » . وعندما بدأ النصر الأسبانى يتضح معالمه ، أصدر جونز الفو أوامرة لرجال المقدمة بالخروج من مواقعهم والتقدم ليكملوا تدمير العدو .

وكانت معركة كريجنولا ذات مغزى سياسى قليل ، لأن الجيوش المستخدمة كانت صغيرة

---

(١) وضعت صفوف قليلة من حملة القرابين فى الأمام وخلفهم حملة الحراب . « المعرب »

نسبياً ولكنها كانت نقطة تحول رئيسية فى تاريخ الحرب . فقد رفع جونزالفو القرطبى مركز جندى المشاة المسلح بالقربينة حتى أصبح أهم رجل مقاتل فى المعركة . وهذا المركز ظل يحتفظ به رجل المشاة لأكثر من ٤٠٠ سنة ،

وقد سبب الجمع بين مدافع الماكينة والأسلاك الشائكة فى حرب ١٤/١٩١٨ إلى إهتزاز مركز الجندى المشاة بعض الشيء ولكنه عاد مرة أخرى إلى مركزه فى حرب ٣٩/١٩٤٥ عندما أخذت مركبة القتال المدرعة تجول فى ميدان المعركة معاونة أياه فى كسب الأرض فى مواجهة الأسلحة الصغيرة . ومن ثم فقد فهم الدرس القائل بان المعارك تكسب بالجمع الماهر لكل الأسلحة ، ولو أن واحداً منها قد يكون فى فترات معينة أكثر أهمية من الآخرين وسيظهر دروس مثل هذا وأكثر فى السياق التالى لسردنا .

الحمى الدبلوماسية (أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وفى نهاية عام ١٥٠٣ أظهر جونزالفو مرة أخرى وبوضوح قدرته العسكرية الرائعة ، وذلك فى حملة ومعركة جاريجليانو .

وكانت الفلول الفرنسية لمعركة كريجنولا قد تم تدعيمها بقوة ، وفى أكتوبر تعقب جونزالفو جيشاً فرنسياً ضعف حجم جيشه إلى أسفل وادى جاريجليانو ، وكان العدو متجهاً نحو نابولى ، ولكن نتيجة لأمطار الخريف الغزيرة فقد قرر بدلا من محاولة التقدم عبر الطريق الجبلى أن يتجه إلى الساحل ثم يتقدم على طول الساحل ، وعندما أدرك جونزالفو ذلك، دفع جيشه عبر الجبال بأقصى سرعة ليصل ويعبر النهر قبل العدو .

وفى أوائل نوفمبر حدثت المواجهة بين الجيشين وبينهما اللسان المنبسط السفلى لنهر جاريجليانو . أنشأ الفرنسيون كوبرى عائم ولكن نيران المدفعية والقرابين الأسبانية منعتهم من العبور ، وخلال ذلك الوقت أزداد الطقس سوءاً ، وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى لعبور النهر ولكنهم فشلوا فتوقفوا بعدها عن أى محاولة للعبور .

ونهر جاريجليانو معروفاً جداً لجيوش الحلفاء التى حاربت فى إيطاليا فى شتاء ٤٣/١٩٤٤، ويصب النهر فى البحر جنوب كاسينو ، وكان يشكل جزءاً من الطرف الجنوبى للخط الدفاعى الألمانى

المسمى « خط الشتاء » والذى يمتد من أرتونا على الأدرياتيك ثم خلال الجبال فى إتجاه الجنوب إلى مصب نهـر جاريجليانو واللسان المنبسط العلوى لما يسمى فى هـذه الأيام بنهر « ليرى » .

ومن المعروف أن فى فصل الخريف والشتاء تصبح الأنهار فى إيطاليا عبارة عن بحار من الطين ، وذلك ما أعرفه جيداً ، فالجيش الثامن الذى كنت أقوده كان مجبرا على عبور نهر « سانجرو » قبل أن يتمكن من الإستيلاء على أرتونا ، وقد تعودنا على القول بأن الطقس كان عدواً أشد صعوبة وقسوة من الألمان .

ولنعد الآن إلى معركة جونزالفو ، فنجد أن بعد محاولة الفرنسيين الفاشلة لعبور النهر توقف كلا الجيشين لمدة ستة أسابيع يحرس كلاهما الضفة الموحلة لنهر جاريجليانو ، واستمر الطقس رطبا وباردا وبصورة غير عادية .

وكان جونزالفو يعلم بأن الإنسحاب ولو حتى إلى الأرض الأجف فى أسفل التل سيكون مميتا لأن القوات الفرنسية المتفوقة لو تمكنت من عبور النهر فيصبح مصير نابولى محتوما ، وفى ذلك الوقت لعبت الروح المعنوية الدور الحاسم .

وقد أقام جونز الفو نفسه فى كوخ يبعد حوالى ميل عن شاطىء النهر وكان يزور المواقع الأمامية يوميا ناصحا وحاضا ومبقيا جيشه العاطل المبتل فى روح معنوية عالية .

أما على الجانب الآخر فقد فقد الضباط الفرنسيين ما كانوا يتمتعون به من أثارة ، وتراجع الكثير منهم ليعيشوا فى منازل مريحة بالمدن القريبة .. أما القائد العام المركيز مانتو فقد أصيب بحمى « دبلوماسية » جعلته يسلم القيادة إلى المركيز « سالوزو » وسرعان ما انحلت الجنود الفرنسية ، وترك الكثير منهم خطوطهم التى أنتشرت فى غير نظام بعيدة فى الخلف[1] .

وفى مثل هذا الجو كان يبدو من غير المحتمل تماماً قيام الأسبان بالهجوم حيث كان عددهم أقل كثيراً ولذلك السبب إتخذوا موقف الدفاع وبالتالى فقد أهملت اليقظة الفرنسية

---

(١) بعيدة عن جانب النهر الموحل . « المعرب »

كارثة سويسرا (أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وأدرك جونزالفو التدهور الفرنسى وخطط هجوماً مفاجئاً ، وتم تجهيز أجزاء كوبرى عائم خلف الخطوط الأسبانية بمسافة كافية وتحت أشراف إخصائى المدفعية والهندسة العسكرية « بدرونا فارو » ، وصنعت أجزاء الكوبرى صغيرة وخفيفة بدرجة مناسبة ليمكن حملها على البغال ، وكذا يمكن تجميعها وتركيبها بسرعة .

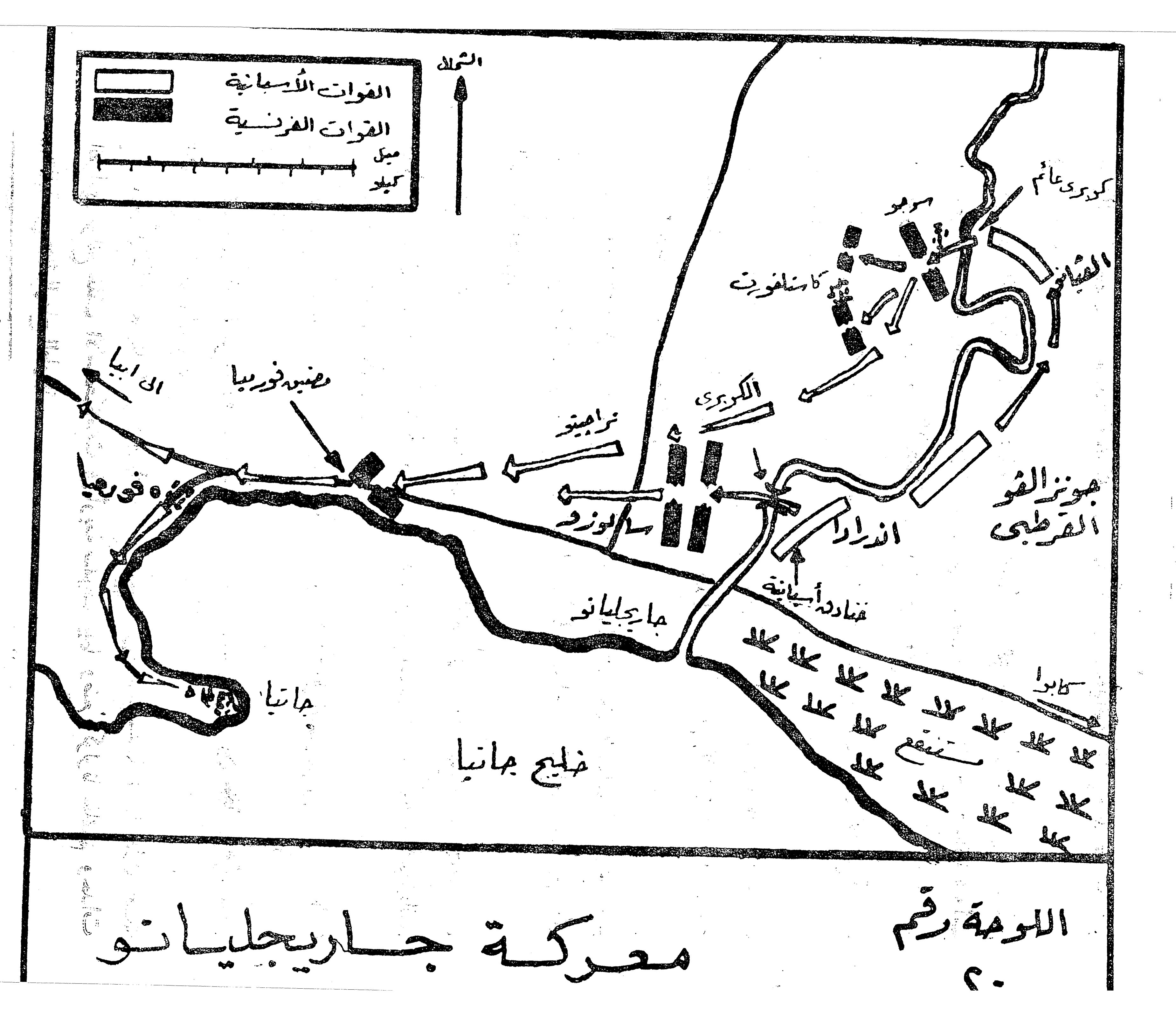
وفى عيد الميلاد أقيمت هدنة لمدة يومين ساد فيها بعض الشعور من الصداقة والمودة بين الجيشين ، ولكن الجنود الفرنسيين إستمروا فى الإحتفالات لعدة أيام

وفى ٢٧ ديسمبر ،حرك جونزالفو الجزء الأكبر من الجيش الأسبانى وأجزاء الكوبرى إلى النهاية الشمالية للموقع الأسبانى ، وكان ذلك فى مواجهة أقصى يسار الفرنسيين عند قرية «سوجو» حيث يضيق النهر قليلا والأرض أقل تشبعاً بالمياة علاوة على إمكان أخفاء التجهيزات . وحدد جونزالفو موعد بدأ الهجوم فى فجر ٢٩ ديسمبر .

وتولى ألفيانو المقدمة وبناء الكوبرى بينما تولى جونزالفو قيادة المعركة الرئيسية . بينما إحتلت قوات المؤخرة الخنادق على طول النهر وفى مواجهه القوة الفرنسية الرئيسية على أن تعبر هى الأخرى من نفس مكان القوة الرئيسية إذا سارت الأمور سيراحسنا .

وسارت الخطة طبقاً لما هو مرسوم ، فعند الفجر تم اقامة الكوبرى ، وكانت المشاة الفرنسية الضعيفة فى « سوجو » غير مستعدة لمقاومة الطليعة الأسبانية من الفرسان الخفيفة عندما أنقضت عليها . واندفع الفيانو بسرعة وعنف على طول مجرى النهر ومن خلال عدة قرى يحتلها المشاة السويسرية والتى لم يعطها الفيانو الفرصة والوقت لتفتح للمعركة . فى ذلك الوقت كان معظم الفرسان الفرنسية فى الخلف بعيداً عن النهر ، وإستطاع سالوزو بجهد كبير جمع عدد ضئيل منهم ولم يقوموا إلا بهجوم واحد ولكن كان بدون جدوى .

وقامت الفرسان الأسبانية الخفيفة بمطاردة العدو لمسافة ١٠ أميال قبل أن تتمكن قوة فرنسية كبيرة من ايقافهم عند مضيق فورميا . ولكن فى ذلك الوقت كانت مشاة



اللوحة رقم ٢٠

معركة جاريجليانو

جونزالفو أصبحت مستعـدة للمعركة الرئيسية كما أن وحدات المؤخرة قد عبرت النهر هى الأخرى .

ويمـكن القول بأن المعركة الحقيقية فى جاريجليانو هى التى دارت فى ممرفورميا . ولـكن بعد ساعتين من القتال الشاق أخترق الموقع الفرنسى واستمرت المطاردة حتى «جاتيا» وأسر عدد كبير من الفرنسيين وتم الإستيلاء على عدد من المدافع .

وكانت معركة جاريجليانو آخر حملات جونز الفو، وفى نفس الوقت كانت التتويج المناسب له كقائد عظيم .

وفى عام ١٥١٥ مات جونزالفو القرطبى وهو مكلل بالمجد والشرف، ومن بعده فقد اعترف بأسلوبه التـكتيكى فى العالم . واستمرت أسبانيا فى زيادة نسبة حاملى القرابين . وقد وضح باستمرار وبصورة مذهلة كفاءتهم وتأثيرهم .

وفى عام ١٥١٣ فى معركة لاموتا ضد البندقية طردت الفرسان الأسبانية فى الواقع خارج المعركه ، ولـكن حملة القرابين وحمله الحراب الأسبانية استطاعوا أنتزاع النصر فى هذا اليوم بطريقتهم .

ففى الوقت الذى وصل فيه العدو إلى خط المشاة الأسبانية ، قد أصبح محطماً ويتعثر تحت وابل من نيران القرابين الأسبانية لدرجة أنه لم يتمكن من الصمود أمام الهجوم النهائى الذى شنه حملة الرماح الطويلة الأسبانية .

وبانتهاج أسلوب جونزالفو ، حقق الأسبان نصرهم[1] على السويسريين عند بيوكا كا عام ١٥٢٢ .

وقد جهز كولونا موقعاً دفاعياً جيداً عند ممر ضيق مغمور يجرى بين حافة حديقة وبعض الأراضى المزروعة وأمامه ممر مائى .

وحوَّل حافة الحديقة إلى إستحكامات مع وضع بعض المدافع خلفها ، واحتلت حملة القرابين مواقع خلف الاستحكامات فى أربعة صفوف بينما وضع كولونا خلفهم وحدات متتالية من حملة الرماح الطويلة .

---

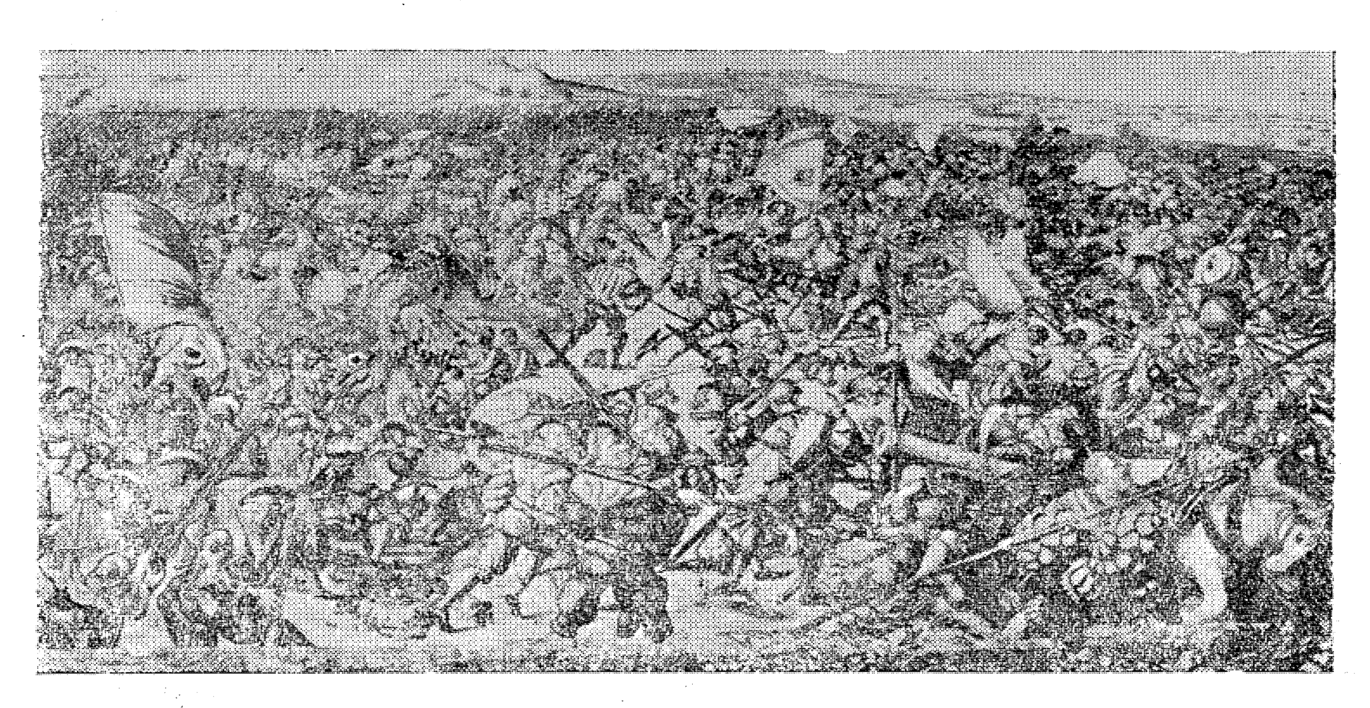
(١) كان يقود الأسبان كولونا الإيطالى .

وتقدم حملة الحراب السويسرية فحصدتهم أولا نيران المدفعية ثم نيران القرابين ، أما الذين أستطاعوا مواصلة التقدم أضطروا لخوض مياه المجرى ليجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى مجزرة ، فقد أخذ حملة القرابين الأسبانية فى أصطيادهم حيث كان الأسبان فى مكان مرتفع لم يسمح لحراب السويسريين حتى من لمسهم .

وقد قتل عدد كبير من السويسريين وهم يقومون بهذا الاقتحام اليائس ، وفى نهاية المعركة ، هبط عليهم حملة الحراب الأسبانية حيث أجهزوا عليهم . ويعتبر يوم بيوكا كا كارثة مروعة للسويسريين ولم يتمكنوا من بعدها من أستعادة ثقتهم وحبهم للقتال السابقة وقد كتب جو كورديتى عن ذلك : —

« لقد عادوا إلى جبالهم وقد نقصت أعدادهم ، ولكن الأهم من ذلك نقصت جرأتهم » .

وفى زيورخ وجد المصلح زوينجلى[1] جمهوراً متعاطفاً ومؤيداً لإستنكاره لتجارة المرتزقة المفسدة وعلى أى حال عندما لم يجد السويسريين بديلا لحرفتهم كمقاتلين داخل وطنهم أضطروا على الاستمرار فى توفير المجندين لكل جيوش أوروبا خلال القرن ١٦ . وقد ظلوا



المشاة الأسبانية تهاجم الجيش الفرنسى فى معركة بافيا

(٢) كان قسيساً فى الجيش عند أول هزيمة سويسرية فى مارينيانو . « المعرب »

محتفظين بسمعتهم كقوات جيدة تتميز بالثبات ولكن فى المستقبل أصبح الدور التكتيكى لحملة الحراب عبارة عن الخدمة فى وحدات صغيرة مع عدد مساو تقريباً من حملة القرابين وببطء وعلى مضض عود السويسريون أنفسهم على هذا العمل الثانوي الأقل مرتبة وشأناً عما كانوا عليه ، ولم يكن لديهم فيه بناءاً قياديا مناسبا . وقد كان هناك نوع من سوء التقدير والخطأ فى مراعاة العرف الديمقراطى ، فالقيادة لم تكن فى يد فرد واحد بل كانت فى يد لجنة من العسكريين القدامى ، ولذا لم يكن هناك سوى عدد ضئيل من الضباط والصف ضباط .

ونتيجة لذلك أستمر السويسريون ممتازين فى عدد بسيط من أساليب المناورات القديمة والمدربين عليها جيداً ، ولكن كانت تنقصهم المرونة والقدرة على التحسين والتطور ، وبالتالى كانوا غير قادرين فى المعركة على تغيير خططهم لتوافق المواقف التكتيكية المتطورة .

العرش المحطم (أنظر اللوحة رقم ١٩)

أما الأسبان ، فكان الأمر بالنسبة لهم على عكس ذلك ، فقد أثبتت معركة بيوكوكا صلاحية أسلوبهم الجديد .

فالهزيمة التى ألحقتها حملة القرابين الأسبانية بمعظم المشاة المشهورة فى أوروبا أعطتهم دليلا واضحاً آخر على بسالتهم ومثال لذلك النصر الذى حصلوا عليه تحت قيادة المركيز بسكارا على الفرسان الفرنسية خارج بافيا عام ١٥١٥ . وفى هذه المعركة لم ينتصروا بالانتظار خلف ساتر يمكنهم منه صد الهجوم المعادى ، ولكنهم حققوا النصر بقيامهم بمفاجأة الفرنسيين فى أرض مفتوحة مطوقين جناحى الجيش الفرنسى ثم أمطروا صفوف الفرسان المحتشدة بقصفات من النيران غير المتوقعة ، كما دمروا المشاة الفرنسية وأسروا فرانسيس الأول ملك فرنسا .

والآن لم يعد هناك شك فى مدى النجاح المتواصل الذى حققه أسلوب جونزالقو القرطبى ضد الفرسان وجميع أنواع المشاة .

وبدأ رماة السهام والفرسان الثقيلة فى الإختفاء بسرعة من جميع الجيوش الأوروبية تقريباً ليحل محلها حملة القرابين وحملة الحراب . ولما كان معظم الجنود تفضل بالطبع

أن تقوم هى بإطلاق النيران عن أن يطلق عليها النيران ، لذا كان من السهل تجنيد حملة القرابين ، أما حملة الحراب فقد تأقلموا على عملهم التكتيكى الجديد ألا وهو تدعيم حملة القرابين بدلا من قيامهم هم أنفسهم بالهجوم فى أنساق . ويجدر القول هنا أن دروع الجسم لم تعد توفر أى وقاية ضد الرصاص الجديد علاوة على أنها تسبب عرقلة الحركة وتفقد خفة الحركة ولذلك نبذ إستعمالها تقريباً بعد المرحلة التى لم تعد أكثر من أنها أشكال للزينة والزخرفة .

وأصبحت القوة الدفاعية لحملة القرابين هى الاعتبار التكتيكى المهيمن فى أذهان القادة ، لذا أصبح الدفاع مرة أخرى هو صاحب اليد العليا فى الحروب ، مما نتج عنه أنه بعد معركة بافيا أصبحت معارك الأرض المفتوحة شيئاً نادر الحدوث جداً ، أما معركتى كيرسول (١٥٤٤) ونيوبورت (١٦٠٠) كانتا فقط المثالين الوحيدين لذلك فى نهاية هذه الحقبة . وظل حملة القرابين فى النظام الذى أنشأه جونزالفو القرطبى أقوى أنواع القوات بأساً ، وكان الأسبان أفضلهم جميعاً . ولكن بعد عام ١٥٢٥ كانت الفرصة ضئيلة أمام حملة القرابين عموماً لكى يثبتوا مقدرتهم فى ميدان القتال اللهم إلا فى بعض الاشتباكات الصغيرة الثانوية .

فى الثلاثة أرباع الأخيرة من القرن ١٦ أنجبت الحرب فى أوروبا بعض القادة العسكريين القادرين ، ولكن لم يكن هناك حملات حتى يمكن عمل مقارنة معها كما حدث فى الحروب الإيطالية . وفى المرحلة الثانية من الصراع بين أسرة فلواز وأسرة هبسبرج أى فيما بين عام ١٥٢٥ ، ١٥٥٩ مرت فى الحقيقة ١٤ سنة لم يحدث فيها أى قتال على الإطلاق . وبمقتضى معاهدة كاتو — كمبرسيس عام ١٩٥٩ أستولت فرنسا على بورجندى وبعض قلاع الحدود والتى منها كاليه . وفى سبيل ذلك تنازلت فرنسا عن أدعائها فى سافوى وأيطاليا . ومن وجهة النظر السياسية فكانت تلك الفترة الطويلة من الأحداث المتلاحقة ذات طابع سلبى على نحو فريد ، فجميع الأطراف أمتنعت عن توجيه أنتباهها لأمور أكثر أهمية . وربما كان عبور آلاف من الرجال ذهاباً وإياباً من خلال الألب قد ساهم فى نقل أفكار ومعلومات المقاومة الإيطالية إلى شمال أوروبا . أما فرنسا فقد تركتها الحروب وقد

ذهب هيبة عرشها وهى محطمة تعانى الأفلاس والانقسام الدينى ومليئة بالجنود العاطلين .

وهكذا كان المسرح معداً لتجدد القتال ، ففى عام ١٥٦٣ بدأت الحرب الفرنسية الدينية وكانت عبارة عن تسعة مراحل من الحروب الأهلية . وقد نشبت هذه الحروب بعناد مزعوم حول حق العبادة بناءاً على ما يمليه الضمير ، ولكن كانت أهم النتائج هى نجاح هنرى السادس فى المحافظة على الساطة المطلقة للتاج . وقد وصف ف . هـ . هـ . جرين هذه الحروب فى عبارات يمكن أن تكون مناسبة لمعظم حروب هذه الفترة :ـ

« حروب مشوشة ومعقدة ، وإذا فحصناها لوجدنا تفاصيلها مملة ، ولكن فى بعض المناسبات مثيرة ومفعمة بالحركة . . وفى بعض الأحيان تظهر أخلاصاً زائداً للمبدأ . . ولكنها عادة ينعدم فيها الإخلاص تماماً . وفى كثير من الأحيان تتجلى فيها أعماق غدر الإنسان وطمعه فى أشرس صورها وأكثرها إثارة للاشمئزاز » .

حرب الوردتين

فى نفس الوقت ، أى بعد عام ١٥٦٨ حارب الهولنديين ليحصلوا على أستقلالهم من أسبانيا . وقد منعت التعهدات الملاحية الأسبانية من تركيز كل قوتها لتدمير الثورة الهولندية وقد أدى هذا أن خسرت أسبانيا الحرب . وتخلص الهولنديون من عبوديتهم بعد صراع بطولى .

وفى عام ١٥٨٤ بدا وكأن كل شىء يهوى نحو الضياع ، فقد أستسلمت الولايات الكاثوليكية فى الجنوب (بلجيكا) ، ومات أول زعيم وطنى هولندى وهو « ويليام الصامت » ، فى نفس الوقت كان القائد الأسبانى العظيم اسكندر دوق بارما يزحف فى صورة قاسية للاستيلاء على «أنفرس» و«جنت» ولكن الصراع انتقل إلى البحر وإلى المقاومة اليائسة لسكان المدن ضد أعمال الحصار الأسبانى . ومع عام ١٥٩٠ بدأ المد فى التحول ، وتحول دوق بارما نفسه ليأخذ دوراً فى الحروب الفرنسية ، فى نفس الوقت عثر الهولنديون على قائد ممتاز هو موريس ناسو . . وقام الهولنديون بحملتى حصار رائعتين مضافا إلى ما حققوه من أنتصارات فى « تيرنهوت » (١٥٩٧) و « نيوبورت » (١٦٠٠) مما كان له أكبر الأثر فى دفعهم إلى الأمام . ولم تستطع القيادة الباهرة « لأمبريجيو

سبينولا » الأسبانى من منع الهولنديين من الحصول على الإستقلال نتيجة الأمر الواقع والذى حدث فى هدنة عام ١٦٠٩ . ويمكن القول بأن هـــذه الحروب شاهدت تجديداً للابتـكارات التى ظهرت خلال الحروب الإيطالية .

كما أن المرتزقة كان لهم دوراً رئيسياً فى خوض هذه الحروب ، ويضاف إلى ذلك أن جميع الجيوش أصبحت خليطاً متعدداً من جنسيات وأمم مختلفة . واستمر الطلب على السويسريين فى إيطاليا وفرنسا حيث إعتبروا مصدراً للضباط الممتازين ولحملة القرابين . وفى ألمانيا كان هناك سلاماً داخلياً فى الفترة ما بين ١٥٥٥ و ١٦١٨ ، لسبب واحد وهو أن أى شقاق فى الرأى لمواجهة التهديد التركى سيـكون حدثاً قاتلا ومدمراً .وقد حارب أعداد كبيرة من الفرسان وحملة الرماح الألمـــان كمرتزقة خارج ألمانيا وخاصة مع الجيوش البروتستنتينية فى فرنسا والأراضى الواطئة . أما دور انجلترا فى تاريخ الحرب البرية خلال القرن ١٦ فقد كان بصفة عملية معدوماً ، فـكانت انجلترا بلداً متخلفاً نسبياً ويبلغ عدد سكانها ٤ مليون بينما كان تعداد أسبانيا ٧ مليون وفرنسا ١٠ مليون . وبعد قتال تافه فى حرب الوردتين (١٤٥٥ — ١٤٨٥) أهتمت عائلة تيودور الجديدة بالأمور الداخلية للبلاد والتى كانت تتلخص فى إدخال المذهب البروتستنتى واحلال حـكومة برلمانية بدلا من الحـكومة الإقطاعية . وبخلاف بعض المغامرات القليلة الفاشلة تماماً تجنبت إنجلترا التورط فى السياسات الأوروبية .

وقد أدى عدم إحتفاظ أسرة تيودور بقوات وطنية على تخلف الإنجليز وبشكل كبير ولمدة طويلة فى الفنون العسكرية ، حتى أن حاملى الأقواس الطويلة لم يخلوا أما كنهم لحملة القرابين إلا فى عهد الملـكة أليزابيث الأولى (١٥٥٨ — ١٦٠٣) . وعلى أى حال فكانت القوات الإنجليزية المرتزقة والمغامرون مثل « فرانسيس فـــير » مشهورين فى الحروب الهولندية .

وقد جعلت أسطورة جونزالفو القرطبى التـــكتيكات الدفاعية هى الأمر الطبيعى .

وفضل القادة المناورة والهجمات الخداعية أو محاولة الهجوم على العدو أثناء التقدم أو قطع مواصلاته أو إجاعته عن أن يقوموا بهجمات مباشرة وبالمواجهة ولم تتغير التطورات الفنية

التى حدثت فى الأسلحة النارية من هذا الموقف . وعلى أى حال ، فقد نشبت الحرب الهولندية على أرض تكثر بها المستنقعات والقنوات والسدود الأمر الذى يجعلها تلائم إلى حد كبير المعارك الدفاعية .

وفى فرنسا فقد أدى القيادة الضعيفة والنظريات العسكرية الغيرسليمة إلى وجود أسلوب قتالى سيء . وقد عبر الجندى الفرنسى « لانوى » عن إستياءة من مواطنيه قائلا : ـ « منذ مدة طويلة ويقرأ الشباب الكثير من الروايات عن المغامرات الطائشة المملوءة بالغراميات والقتال بدون هدف ، أما كبار السن فهم أيضاً يقرأون منذ مدة ويعيدون القراءة لميكافيلى وبدون ملل » .

وفى الواقع اشتهرت القيادة فى السنين الأولى للحروب الفرنسية بعدم القدرة المستمرة والقصور والعجز .

ففى معركة دروكس (١٥٦٢) إستطاع كل طرف أسر قائد الطرف الآخر . كما نفذت حملات صغيرة جداً فى نفس الوقت ولكنها لم تكن منسقة فى أية إستراتيجية شاملة . ولم تكن هناك أى دولة خلاف أسبانيا تستطيع أن تجند أو تتحمل دفع أجور أكثر من جيش وطنى عامل وصغير جداً

وسببت النسبة العاليةمن القوات المرتزقة فى كل الجيوش إلى أفتقارها إلى المبادأة والروح الهجومية ووحدة الهدف الإستراتيجى ، وحتى القوات الأسبانية الوطنية كانت تمتنع عن الخروج للقتال عندما يلوح لها أنها لن تحصل على أجورها .

وقد أدى التمرد الأسبانى عام ١٥٧٦ إلى تدمير مروع لأنفرس ، كما كانت قلة الأموال سببا فى ضياع حملات عديدة ، فكان بخل وشح كل من فيليب الثانى واليزابيث الأولى يثيران سخط قادتهم ويثبط من عزيمتهم .

وكان أقدر رجل عسكرى فى ذلك الوقت هو بارما الأسبانى ، ولكن نادراً ماتوفرت لديه أموال كافية . وكثيراًما وصلته أوامرمن ملك أسبانيا لم يضع فيها أى إعتبار للاستمرار الإستراتيجى ، ومثال ذلك الأوامر بالوقوفعلى أهبة الإستعداد لغزو إنجلترا عام ١٥٨٨ثم

نقله إلى فرنسا فيما بين عامى ١٥٩٠ — ١٥٩٢ . وقد منعته هذه الأوامر من تنفيذ مهمته الأساسية وهى هزيمة الهولنديين الثائرين .

وخلال القرن ١٥ أستطاع فن الحصار التغلب على الحصون ، وأستمر ذلك حتى الفترة من ١٤٩٤ — ١٤٩٥ التى قام بها شارل الثامن ملك فرنسا بحملته ، إلا أن الموقف تغير فى القرن ١٦ عندما قام المهندسون العسكريون برد فعل بنائى على وجود المدفع ، وبسرعة سارت التحصينات العلمية على طول خطوط جديدة ، ومرة أخرى أصبحت التحصينات عالية ومنيعة وقد أدى هذا العامل بالإضافة إلى النظام التكتيكى الدفاعى وقلة الأموال لدى كل حكومات أوروبا إلى سيطرة الإستراتيجية الدفاعية بعد الحروب الإيطالية ؛ أو بالأحرى إلى ذلك النوع من الإستراتيجية طويلة الأمد والمناورات السياسية ، وفضلت هذه عن أستراتيجية الحصول على نتائج سريعة بقوة السلاح . ومن الطبيعى إلتجاء الناس إلى قلاعهم الحصينة ، أما القادة فإن لم يكن هناك ظروف قاهرة تجبرهم على الخروج ليواجه كل منهم الآخر ، فكانوا لا يجرأون على الخروج كل من قلعته . ونجد بعد بافيا (١٥٢٥) كثر ذكر الحصارات فى سجلات الحرب والتى توجت بحصار « سبينولا » لأوستند والذى أستمر ثلاثة أعوام (١٦٠١ — ١٦٠٤) .

وأصبح المبدأ الرئيسى فى التحصينات الجديدة من عام ١٥٢٠ فصاعداً هو بنائها فى شكل مندمج ومنخفض ، وكان الإنخفاض فى الواقع يصل إلى مادون مستوى سطح الأرض وذلك لتصبح هدفاً صعباً للمدفعية ، كما كانت الأسوار والجدران سميكة بدرجة كافية لتتحمل القصف المعادى وكذا إرتداد مدافع الحصن بعد إطلاقها . وقويت التحصينات الأمامية مع عمل ممرات مغطاة ومنحدرات خفيفة وخنادق أكبر ، وإستخدم المدفع فى الدفاع ، وبنيت الأسوار بنتوءات بارزة وريدانات[1] وقم بغرض السيطرة على أوسع مدى ممكن ، وفى معظم الحالات كان يعاد تجهيز حصون العصور الوسطى ، وكمثال رودس والذى أعيد بناؤها فى شيء مختلف على البناء السابق .

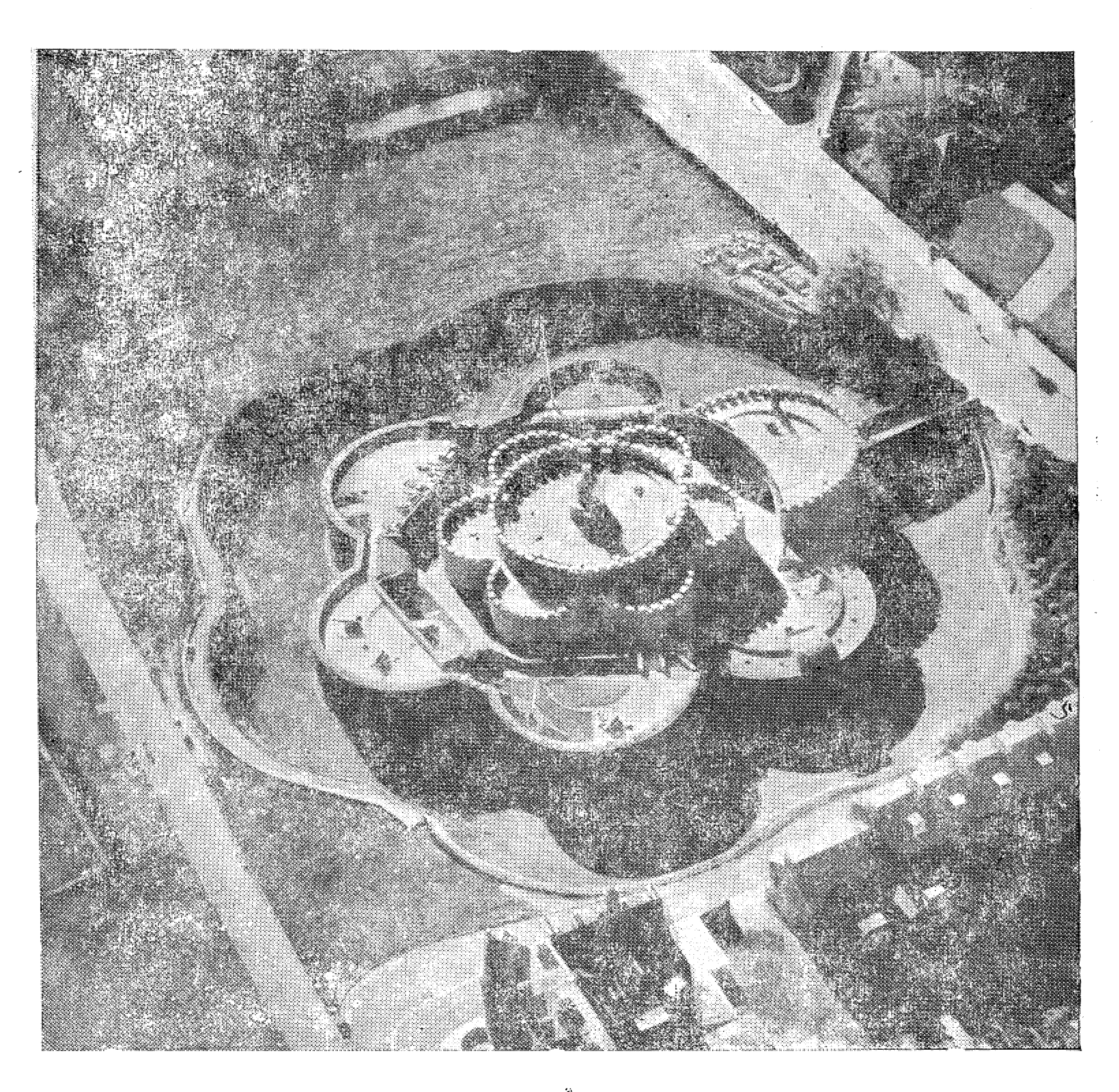
ويعتبر حصن ديل مثالا للحصون الجديدة فى هذه الفترة ، وهو واحد من سلسلة حصون

---

(١) جداران يشكلان زاوية بارزة . « المعرب »

بناها هنرى الثامن للحراسة خوفا من أن الرياح قد تقذف بأسطول معادى نحو الساحل الجنوبى الإنجليزى .

بينما يكون الأسطول الإنجليزى محجوزاً فى الميناء . وكان حصن ديل يتكون من بنائين داخل بعضهما كل منهما شكل وردة ذات ستة وريقات مع وجود برج دائرى فى المنتصف وكان هناك ما يقرب من ١٤٥ مدفع مركب على طول الأسطح المطوقة للحصن وبالتالى يمكن



حصن ديل

لهذه المدافع السيطرة على جميع طرق الأقتراب المؤدية إلى الحصن بشكل متدرج . وكان البحر يلتفت حول جزء من السور الخارجى ، كما كان باقى الحصن محاط بخندق مائى عميق ولذلك كان الدخول عن طريق كوبرى متحرك . وفى فرنسا كانت قلعتى الهافر والفيترى أمثلة لكثير من الحصون الجديدة التي بنيت فى القرن السادس عشر . وفى هولندا كانت الحصون بصفة خاصة قوية نتيجة إحاطتها بالماء من جميع الأتجاهات . وفى عام ١٥٧٤ أمكن فك الحصار المضروب حول ليدن بقطع السدود مما سبب إغراق الماء للمحاصرين .

مرجريت المجنونة (أنظر اللوحة رقم ١٩)

لم يكن هناك تطور فى المدفعية يلاحق الزيادة فى قوة التحصينات ، ففى القرن ١٥ حقق المدفع البرونزى ذو العيار الكبير سيادة لاحد لها ، كما صنع مدفعاً فى الفلاندر سمى « مرجريت المجنونة »[1] . وقد تحسنت بعض الشيء كفاءة المدفعية فى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ بأنتاج بارود خشن كان أحتراقه أسرع وقوة دفعه للمقذوف أكبر ، كما زاد من دقة المدافع أدخال فنون أكثر دقة لصب وثقب الماسورة . ومنذ ذلك الحين ظل تصميم المدفع الذى يعمر من الفوهة لا يتغير لمدة ٣٠٠ سنة التالية . ولم يكن هناك توحيد فى شكل قطع المدفعية ، ففى عام ١٥٥٠ وصلت المدفعية البريطانية إلى ١٦ نوعاً أبتداء من « المدفع الملكى » زنة ٤ طن والذى يطلق قذيفة زنة ٧٦ رطل إلى « الرابينت » زنة ٣٠٠ رطل والذى يطلق قذيفة زنتها ١٥٠ جراماً . وكان المدفع المستخدم فى السفن من نوع « كولفيرن » و « الصقر » ذات المدى الصغير . وفى مستهل القرن ١٦ عندما قرر هنرى الثامن الرغبة فى الحصول على مدفع قوى بدرجة كافية « لقهر الجحيم » تعين عليه أن يطلب مثل هذا المدفع من صانعها الفلمنكى « هانس بوبينرتير » ، وهذه علامة على التخلف العسكرى الإنجليزى فى ذلك الوقت .

ولكن فى عام ١٤٥١ حدث تطور هام وهو أن « ويليام لافيت » بدأ فى صنع مدفع حديدى فى غابة « أشدون » وبالرغم من أن المدفع الحديدى ثقيلا جداً وسريع الكسر وأقل كفاءة من المدفع البرونزى إلا أنه كان أقل ثمناً وأكثر مطلباً وشيوعاً . وفى الواقع فى عام

(١) كان طول هذا المدفع ١٨ قدم وعيار الماسورة ٢٣ بوصة ويزن أكثر من ١٥ طن .
« المعرب »

١٥٧٤ جرى تصدير عدداً كبيراً من المدافع الحديدية بدرجة أن هذا الأمر أفزع السياسيين وجعلهم يمنعون هذه التجارة . وكان أفضل المدافع فى ذلك الوقت المدافع الألمانية المصنوعة فى مصانع « بيك » بمدينة أوجسبورج و « وساتلر » بمدينة نورمبرج ، كما أن الألمان أخترعوا أيضاً المورتر[1] (القاذف القصير) ، أما أسبانيا فلم يكن لديها مصانع على مستوى جيد لبناء المدافع ، وبالتالى فقد عانت معاناة مريرة بسبب ذلك النقص .

وبشكل عام ، فى الفترة التى تلت الحروب الإيطالية كانت الخيانة والخداع والتجويع أكثر أساليب الحصار نجاحاً عن أسلوب القصف بالنيران . ولم يكن معدل نيران المدفع قد فاق حتى ذلك الوقت المنجانيق والمعروف بأسم « باليستا » والتى ظلت تستخدم أحياناً . وفى عام ١٥٤٦ نشر « نيكولو تارتاجليا البندق » بحثاً هاما عن علم حركات المقذوفات ، وفيها علم رجال المدفعية كيفية تقدير المدى والأرتفاع بأستخدام آلة الربع دائرة . وبالرغم من الحصار كان عملا مجهداً ، بالأضافة إلى تراكم المزايا ضد القائم بالحصار ، فأن حروب تلك الحقبة قد أنتجت أستاذين عظيمين هما « أسكندر بارما » (أسبانيا) و « موريس ناسو » (هولندا) . وفى عام ١٥٨٦ أستولى « بارما » على أنفرس بعد حصار دام ٤ شهور ، وذلك ببناء كوبرى من القوارب على مصب « نهر شلدات » قاطعاً بالتالى أتصال المدينة بالبحر ، الأمر الذى سهل له الأستيلاء عليها . وبعد ذلك بأربعة سنوات كان « بارما » بعيداً عندما بدأ خصمه « موريس ناسو » فى سلسلة من الحملات الناجحة .

وقد بدأ بمدينة « بريدا » ، وفى هذا المدينة أستخدم « ناسو » الخداع بأحضار رجاله المخبئين فى قوارب مكسوة بالأعشاب حتى رصيف الميناء مباشرة . وخلال شهر يونيه ويوليه ١٥٩١ أستولى على مدن ديفينتروزوخن وكلاهما شمال نجمين .. وبعد ذلك دفع موريس قواته بأقصى سرعة مستخدما قوارب نقل البضائع إلى هلست (غرب أنفرس) أى على النهاية الأخرى لخط التحصينات الأسبانية . وسقطت هلست بعد ٥ أيام ، وأستدار بعد ذلك موريس منطلقاً نحو نجمين وأستولى عليها فى ستة أيام أخرى . وكانت الطريقة العادية لموريس هى تركيز نيران مدفعية شديدة على قطاع صغير من سور الحصن ، وبهذا يحدث صدعا فى التحصينات ،

---

(١) وهو مدفع قصير مصمم ليقذف القذيفة فى خط مرور عال أشبه بالخط المقوس على العدو . « المعرب »

كما كان يغرى ضحاياه على التسليم بمعاملتهم بالأحترام الكامل وبتحريم عمليات النهب . وفى العام التالى ، بينما كان بارما مشتبكا فى قتال فى فرنسا حيث أصيب هناك بجرح قاتل،أستولى موريس على حصنين رئيسيين آخرين فى الأراضى الواطئة . وقد ساعدت حملات موريس الهولنديين فى السنوات التالية على طرد الأسبان كلية خارج البلاد الواقعة شمال نهر الرين الأدنى ونهر الوال ، وبالرغم من مهارة سبينولا فى فن الحصار فلم تتمكن أسبانيا من استعادة هذه المناطق ثانية .

اختفاء فرسان العصور الوسطى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وحتى عام ١٦٠٠ على الأقل كانت المشاة الأسبانية[1] يعتبرون من أفضل الجنود فى أوروبا فى أى قتال مفتوح يحدث . وكانت ثقتهم بأنفسهم ومهاراتهم فى الأسلوب التكتيكى التقليدى لذلك الوقت شيئاً بارزاً ورائعاً .

وبالرغم من بعض الظروف الصعبة ، فقد تمكنوا من إكتساح كل ما أعترض طريقهم خلال الأشتباكات الصغيرة التى نشبت فى بداية الحرب الهولندية . ويحدثنا التاريخ عن أحد أعمالهم الفذة والتى فاقت فى بطولتها ماقام به ويلنجتون فى عبور نهر بيداسو فى عام ١٨١٣ ، وهو تقدم ٣٠٠٠ مقاتل أسبانى تحت قيادة « موندرجوان » لتحرير مدينة « تيرجوس » فى عام ١٥٧٢ .

فقد خاضت المشاة الأسبانية ستة أميال خلال ماء يصل إلى وسط الجنود بل إلى أعلى من ذلك عالمين فى نفس الوقت بأنه إذا وصل المدقبل تمام عبورهم فسوف يغرقون جميعاً . ولم يحدث ظهور المسكيت[2] أى تغيير فى أسلوب التكتيك ، بالرغم من أن المسكيت كبندقية كانت مداها ودقتها أكبر من القربينه ، ولكن كانت لها عيوبا منها ثقلها الكبير حتى أنه كان من الضرورى وضعها على سبية ، كما أن معدل نيرانها أقل من معدل القربينة[3] . وفى الأعوام التالية لعام ١٥٧٠ كان لدى الأسبان ١٥ حامل مسكيت لكل ١٠٠ حامل قربينة . ولكن فى عام ١٦٠٠ كانت النسبة متساوية فى معظم الجيوش .

---

(١) يقصد هنا حملة القرابين وحملة الرماح .

(١) المسكيت مشاة أسبانية تستخدم بنادق من الطراز القديم .

(٣) كان معدل النيران ٤٠ طلقة / ساعة .

ومن الصور المميزة لهذا العصر أنه فى عام ١٥٣٤ كان يوجد فى اللواء[1] الأسبانى ١٣ قسيساً بينما كان الطاقم الطبي يتكون من ثلاثة فقط . وخلال تلك الحقبة لم تنتج فرنسا أى مشاة جيدة ، ولكن بعد عام ١٥٩٠ قام موريس ناسو بتدريب عدد من صفوة المشاة الهولندية . وفى معركة نيوبورت (١٦٠٠) كانت المشاة الهولندية مع رجال « فير » الإنجليزية ندا قوياً للمشاة الأسبانية . وعبر هذه السنين كان هناك ميل إلى خفض حجم وحدات كل من المشاة والفرسان . وظهر فى الجيش الأسبانى بدلا من الوحدات الكبيرة أيام جونزالفو القرطبي ، كتائب أصغر حجما يقود كل منها ضابط برتبة عقيد .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت فرسان العصور الوسطى الثقيلة تختفى بسرعة . وقد سخرت قصة « دوت كيشوت » والتى طبعت عام ١٦٠٥ من الفارس المدرع المنقرض وعصر الفروسية المندثر .

واستبدل الرمح القصير بالمسدس[2] وأصبح السلاح الرئيسى للفرسان .

وبالطبع اختلف المسدس عن القربينة فى الحجم بالأضافة إلى أنه يعمل بالزناد الدولابى والذى كان تطورا هاما فى الأسلحة النارية ، فبدلا من الحصول على النار من مادة سريعة الإلتهاب كان يحصل عليها بنفس طريقة قداحة السجاير ، فعند جذب الزناد تتحرك عجلة دائريا لتشعل لهباً من قطعة من كبريتور الحديد والتى استبدلت بعد ذلك بالصوان[3] ، وحيث أن هذه الطريقة غالية علاوة على ضعفها فلم تستخدم للقرابين أو المسكيت .

وسرعان ما اتجهت جميع الجيوش فى استخدام المسدس كسلاح رئيسى للفرسان ، وكان أفضل مستخدمى المسدسات هم فرسان الألمان المعروفين بإسم « ريتر » ، وكان يحمل كل فارس ثلاث مسدسات ويرتدى درعا أسود .

وكانت المناورة التكتيكية الخاصة بهؤلاء الفرسان هى التى تعرف بإسم « الكرا كول[4] »

---

(١) يتكون اللواء الأسبانى من ٣٠٩٦ مقاتل .

(٢) المسدس سلاح ألمانى كان أول ظهوره فى وضوح فى معركة موهلبرج عام ١٥٤٧ .

(٣) حجر القداحة .

(٤) تشكيل الخط نصف دائرى . « المعرب »

وتنطلق تلك الخطوط بشكل متعاقب نحو العدو ، كل منها يطلق نيرانه ثم ينحرف بحصانه بعيداً ويتجه إلى الخلف ليعيد التعمير ويتشكل ثانية ، ولكن كانت لهذه الطريقة أخطارها الكثيرة فكان من الممكن أن تؤدى هذه المناورة المعقدة إلى الاضطراب ، كما أنها احتاجت لرجل شجاع يستطيع أن يصل بحصانه قريباً بدرجة كافية من العدو ليكون فى داخل المدى المؤثر لمسدسه .

وهذا التشكيل العميق يتناقض مع مبدأ تكتيكات الصدمة حيث تضيع القوة الدافعة للصفوف الخلفية فى هذا التشكيل ، بالإضافة إذا توافر للعدو مدافع أو حتى قرابين فسوف يعنى ذلك خسائر جسيمة فى صفوف هؤلاء الفرسان .

وعلى أى حال فقد انتصر القائد الفرنسى البروتستنتى هنرى نافار خلال الحروب الدينية فى معركة كوتراس عام ١٥٨٧ باستخدامه حملة المسدسات فى ثلاث مجموعات يتكون كل منها من ٦ صفوف .

أما أعدائه من الفرسان فقد أصطفوا فى خط طويل من صفين ، واستطاع حملة المسدسات التابعة لهنرى نافار بالرغم من قلة عددهم أن يحطموا خط العدو الضعيف فى ثلاث نقط هاجمت فيها الثلاث مجموعات ، ثم درات فرسان نافار إلى الجنب حيث طوقت فى هجمات جانبية بقية قوات العدو .

وفى الحقيقة ، قررت الفرسان مصير معظم معارك الحروب الفرنسية ، لأن نوعية المشاة كانت رديئة بصفة عامة وبالرغم من ذلك لم يكن مستوى الفرسان المقاتلة عالياً لأن كثيراً جداً من الضباط النبلاء كانوا مهملين وغير منظمين ومشاكسين . وبصفة عامة لم تصلح أرض هولندا لعمليات الفرسان .

ولكن كانت أبرز الحوادث خلوداً فى الحروب الهولندية عندما قتل «سير فيليب سيدنى» أثناء هجوم بطولى ١٠٠٠ فارس انجليزى[1] عند « دار نسفيلد » بالقرب من « فلوشنج » عام ١٥٨٦ .

وخلال الأعوام الأولى من هذه الحروب لم يكن هناك أى شىء ند للفرسان الأسبانية ولكن موريس ناسودرس هذه المشكلة وبالتالى لم يهمل عنصر الفروسية أثناء تطويره للقوات الهولندية .

---

(١) لقد كانت مأساة بالنسبة للانجليز فى ذلك الوقت . « المعرب »

وفى معركة تيرنهوت (١٥٩٧) استطاعت الفرسان الهولندية طرد الفرسان الأسبانية خارج ميدان القتال ، وتحولت بعدها لتنضم على المشـــاة ليحطما سـويا المشاة الأسبانية .

وفى معركة نيوبورت عام ١٦٠٠ وضح تفوق الفرسان الهولندية والذى قرر نتيجة أكبر معركة بعد معركه بافيا عام ١٥٢٥ . بينما لم يتعد صراع المشاة عن الـكثبان الرملية ، قامت الفرسان الهولندية بهجمات متكررة على الأسبان على الطريق الساحلى حتى تمكنوا فى النهاية من دحرهم تماماً .

وأثناء ذلك وخلال الصراع المحتدم بين مشاة الطرفين بدا أن عجلة الحظ أخذت تتأرجح بعيداً عن الهولنديين ، ولـكن قامت فرسانهم بهجوم آخر من خلال الـكثبان على خط المشاة الأسبانى الثالث الضعيف واخترقته مما حقق لهم النصر فى كل أنحاء الميدان .

وقد كان هنرى نافار جريئاً ومتهوراً ولـكنه بشـكل عام كان قائداً ناجحاً للفرسان مؤمناً بأن الوسيلة لتحقيق النصر هى القيام بهجمات مندفعة من نوع مورات .

ويعتبر دفاعه عن مضيق أركوى عام ١٥٨٩ ممتازاً فى نوعه ولـكنه كأستراتيجى فـكان من الدرجة الثانية ، فبدلا من متابعة انتصاره فى إيفرى عام ١٥٩٠ بتقدم سريع نحو باريس أخذ أجازة لمدة أسبوعين لـكى يضع ٢٢ علماً تحت أقدام عشيقته فى بيرن .

وقد فاقه بارما فى المناورة ، ففى عام ١٥٩٠ أجبره بارما بالمناورة على سحب قواته بعيداً عن باريس ، وفى عام ١٥٩٢ خلص «بارما» « روبن » بنفس الطريقة ،وعموماً ففى أى مكان تصادما فاق « بارما » «نافار» ، فقد كان بارما سيد المناورات الاستراتيجية علاوة على علمه الغزير بفن الحصار والهندسة العسكرية .

الملك البقال

وننتقل الآن إلى تاريخ الحروب البحرية والتى ستعطينا فائدة أكبر من التطورات العسكرية التى حدثت فيما بين أعوام ١٥٢٥ — ١٦٠٩ .

وفى القرنين ١٥ ، ١٦ حطمت أوروبا أخيراً حصار الشعوب الأجنبية مثل القوط والعرب

والفايكنج والمغول والأتراك والذى استمر طوال العصور الوسطى . وليس هناك أى تغير للزحف الأوروبى الجديد خلال بحار العالم ، ولكن يمكن أن نقول أن الملاحين والفاتحين كانوا يشعرون بدافع أدخال المسيحية إلى العالم الوثنى ، علاوة على قيامهم بأعمال مجيدة لأنفسهم ولبلادهم ، ودفعهم الفضول والشوق إلى المضى قدما ، ولكن كان أقوى دافع لديهم جميعاً هو الرغبة فى الثراء والاستعمار الأوروبى كان عملا تجاريا يموله المضابون وينفذه المغامرون .

ويعتبر وصف فرانسيس الأول لمانويل ملك البرتغال على أنه « الملك البقال » وصفا صلفاً وفظاً ولكن من الناحية التاريخية كان تحليله لهذا الملك صحيحاً .

فكانت التجارة هى التى وفرت الطاقة ، والدين هو الذى وفر الذريعة ، وقد اعتمدت الوسائل التنفيذية على التطورات الحديثة فى التكنولوجيا فى السفن والمدافع .

وجاء أول اندفاع هجومى من أسبانيا والبرتغال .

وفى عام ١٤٩٣[1] تقررت رحلة كولمبس إلى باهاما ، ويوحى هذا الأمر بأنها كانت لخلق منفذ عادل ومريح للطاقة القسطالية نحو عالم جديد .

وفى عام ١٥٠٩ أقيمت أول مستعمرة أسبانية فى أمريكا . وفى هذا الوقت كان يوجد فى القارة الأمريكية دولتين وطنيتين فقط ذات قيمة وهما الإمبراطورية الأزيتيكية[2] فى المكسيك وإمبراطورية الإنكا[3] .

وقد تم الإستيلاء على هذه الإمبراطورية الواسعة فى أقل من ٥٠ عاما وظلت سليمة ٣٠٠ سنة .

أما الإمبراطوريات الأوروبية[4] التى ظهرت فى القرن ١٦ فقد بقيت أساساً إمبراطوريات بحرية تجارية حتى القرن ١٨ .

ولم يكن تعداد أوروبا كبيراً بدرجة تكفى لاحتلال الأعماق الداخلية للقارة الجديدة بالمعنى الحقيقى ، كما لم يكن لديهم نفس التفوق الساحق فى تكتيك الحرب البرية مثل ما كان لهم فى حروب البحر ، وكانت الشعوب غير الأوروبية تفوقهم فى الحرب البرية .

(١) فى السنة التالية بالذات لسقوط غرناطة .

(٢) وقد قهرها هرنادو كورتيز فيما بين عامى ١٥١٩ و١٥٢٢ .

(٣) وقد ضمها إلى أسبانيا فرانسيسكو بيزارو خلال الأعوام من ١٥٢٢ إلى ١٥٣٢ .

(٤) وهى الأسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية . « المعرب »

الـكارافيل

وكانت السفن الـكبيرة المزودة بالأشرعة الرباعية والمسلحة بالمدافع والتى يعمل عليها بحارة مهرة ولديهم معلومات ملاحية متقدمة هى المفتاح الرئيسى لـكل هذه المغامرات . والبرتغاليون هم الذين نفذوا أول الاكتشافات الملاحية الحاسمة ، وكان الأمير هنرى (الملقب بالملاح) يرعى بحارته ويجمع لهم الـكثير من المعرفة عن طريق بلاطه فى مدينة بساجريس فيما بين أعوام ١٤٣٠ — ١٤٤٠ .

وقد قام فاسكودى جاما برحلته الشهيرة إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح فى عامى ١٤٩٧ — ١٤٩٨ .

وقد كان بحارة العصور الوسطى فى الواقع مرشدين ، وليسوا ملاحين فـكانوا يسيرون بمحاذاة الساحل ويحددون اتجاهاتهم بالبوصلة على العلامات الأرضية المعروفة ، ولـكن عندماظهرت الآلات والخبرات الجديدة فى القرن ١٤ ، ١٥ حولتهم إلى ملاحين . وأدى التحسين فى صنع الأشرعة إلى إمكان تغيير اتجاه السفينة طبقاً لاتجاه الريح ، وقد حافظت الدفة على مسار السفينة المضبوطة أثناء هذه المناورة .

وفى عام ١٤٥٦ كان البرتغاليون يستخدمون الاسطرلاب[١] ، والربع دائرة لقياس الارتفاع الزاوى للنجم القطبى وكوكبه صليب الجنوب فوق الأفق ، وذلك بغرض تحديد خط العرض .

وأنشأت مدارس للملاحة فى لشبونة وسيفيل . وعلى أى حال ، فلم يكن يوجد حتى الآن طريقة لقياس خط الطول ، وبقيت الخرائط بالتالى بدائية غير متطورة .

وكان على البحارة فى القرن ١٦ الاعتماد فوق كل شىء على التخمينات المحسوبة إلى حد ما طبقاً لحساب خطوط العرض وعلى المعلومات المتوفرة لديهم عن الرياح والتيارات البحرية . وقد استخدمت الـكارافيل فى الأيام الأولى للاستكشافات وشكلت بعض التقدم عن سفن العصور الوسطى التجارية .

وكانت الـكارافيل سفينة قصيرة بدينة ذات ثلاث صوارى ومزودة بأشرعة رباعية ،

---

(١) آلة فلكية قديمة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم . « المعرب »

وبمدافع مركبة فى مقدمة ومؤخرة السفينة . وبالتدريج تحسنت ونظمت خطوط تصميمها وبناؤها كما زادت منطقة الشراع لتعطى سرعة أكبر . وكان المدفع صغير الحجم أو متوسط ولكنه عموماً كان من نفس النوع المستخدم فى البر .

وبطبيعة الحال كان الأمر لا يزال محتاجا لمزيد من التطورات ، ولكن لم توجد فى ذلك الحين أى سفينة أخرى فى العالم تستطيع منافسة هذا التجميع القوى لخفة الحركة وقوة التدمير .

وفى عام ١٥٠٩ مزق الأسطول البرتغالى تحت قيادة « فرانسسكو دى ألميدا » الأسطول المصرى خارج ميناء ديو[1] ، وهكذا حل البرتغاليون محل العرب ، وسيطروا على المحيط الهندى .

ولم تكن الفتوحات الأسبانية فى المكسيك وبيرو مجرد سلسلة من الأعمال العسكرية فقط بل كانت أعمال خداع كبيرة . فلم يكن مع كل من كورتيز وبيزارو أكثر من جماعة من المغامرين لا تزيد قوتهم عن ١٠٠٠ رجل ، كما لم يكن مع أى منهم إلا بعض الخيل والأسلحة النارية العتيقة ، ولكنهما استطاعا تكوين الإمبراطورية الأسبانية باستغلال معتقدات أعدائهم الخرافية لإدخال الخوف إلى قلوب أعدائهم .

وقد صور بيتر شافير هذا بقوله : « لم تكن الطاقة الملتهبة لحديد[2] أسبانيا ضد سهام البيرويين الضعفاء المسالمين تمثل صورة تاريخية ، بل كانت صورة مأساة دامية وكان الخوف من آلهة بيضاء غريبة تمتطى خيولا وتطلق من آلات صغيرة جداً رعداً وبرقاً هو السبب الحقيقى لاستسلام زعماء الهنود ، وفى نفس الوقت رحبت الشعوب المذعورة لهذه المناطق بالفاتحين البيض كمحررين لهم من قبضة حكامهم . كما لعب إدخال الجدرى عمداً بواسطة الأوروبيين إلى القارة الأمريكية والتى لم يكن لدى سكانها الهنود أى حصانة ضد هذا المرض ، دوراً فى كسر شوكة مستوطنى القارة الأمريكية .

ولكن مهما كانت الظروف ، فإنها قصة تستحق مكانا بارزاً فى سجلات الشجاعة والقيادة واساليب الحرب النفسية .

(١) تقع جنوب كراتشى بحوالى ٣٠٠ ميل .
(٢) يقصد بنادق الأسبان .

القراصنة المتوضين

وفى المناسبات التى تصادمت فيها الأسلحة الأسبانية مع هنود جنوب أمريكا ، كان التفوق الأسبانى الفنى يظهر فى صورة مذهلة ، فلم يكن لدى الهنود من الأسلحة إلا المقلاع والقوس والحراب ذات الرأس السبجى[١] والفئوس، بينما كان لدى الأوروبيين مدافع وسيوف من الصلب ويركبون الخيل .

وعندما حاصر كورتيز عاصمة الأزتيك[٢] الحصار الأخير فى عام ١٥٢١ قام بصنع ١٣ سفينة شراعية لمعاونة قواته أثناء هجومها على طول ثلاث ممرات من الطرق المرتفعة والتى تربط المدينة بالخارج .

وبلغ طول السفينة ٤٢ قدماً وأقصى عرض لها ٩ أقدام والجزء الطافى منها من ٤ـــ٧ قدما . وزودت بعض هذه السفن بصارى واحد بينما زود الباقى بصاريين وكان عدد طاقمها ٢٥ فرداً مسلحين بالقرابين والنشاب ، كما ركب مدفع صغير على مقدمة السفينة . واعتبر كورتيز هذه السفن هى « مفتاح النصر فى الحرب » ولذا خصص ثلث قوته الإجمالية و٨٠٪ من مدفعيته لهذة السفن .

وقد لعبت هذة السفن فى الواقع دوراً حاسماً فى الحصار والقصف مما أدى إلى إضعاف مقاومه تنوختيتلان .

كما دمرت هذه السفن أسطولا كبيراً من القوارب الهندية سواء باختراقها بمقدمتها القوية أو بنيران المدافع .

وقد أدت هذه السفن المهمة التكتيكية للفرسان وذلك بمعاونتها لجنب ومؤخرة القوات المهاجمة على الطرق الثلاث ، كما أنها فى الليل تقوم بحراسة الرجال أثناء راحتهم ، بالإضافة إلى حمل الأمدادات وقطع خطوط مواصلات العدو مع قيامها بواجبات الاتصال ، وعملت أيضاً كوبرى عائم .

---

(١) السبج زجاج بركانى ذو لون أسود .

(٢) كانت تسمى تنوختيتلان وتقع فوق جزيرة على بحيرة تكسكوكو، وهى فى مكان المكسيك الحالية. « المعرب »

وفى النهاية تمكنت قذائفها من تدمير تحصينات المدينة مخترقة طريقها وتقدمت على طول القنوات المؤدية إلى قلبها .

ولقد كان حصار كورتيز لتنوختيتلان عملية برمائية جديدة فى مفاهيمها ونفذت فى براعة فائقة . وهى حتى وإن بدت كعملية ارتجالية إلا أنها أوضحت بجلاء القوة الساحقة المتولدة من تجميع المدافع والسفن .

أما المنافســة المسلحة بين القوى الإستعمارية الأوروبية نفسها فقد بات مؤكداً أنها ستحدث إن عاجلا أو آجلا . ويعود ذلك لسبب واحد وهو أن التوسع فى المصالح الأوروبية فى المناطق الجديدة كان يعتبر توسع فى الأفق السياسى والاستراتيجى الأوروبى . وخلال الحروب بين الفلواز — الهبسبرج أى بعد حوالى عام ١٥٢٠ ، أغار الفرنسيون والأسبان على مستعمرات وسفن بعضهما البعض ، كما أن شروط معاهدة كاتوا — كمبرسيس أستبعدت من المسرح كل ما هو ليس أوروبى . وقد حدث بعد الفترة الأولى من الأستكشافات من أعمال الماضى وفتور الاهتمام « بالقارة الجنوبية العظمى » و « بالممر الشمالى الغربى » أن أصبحت اهتمامات الحكومات الأوروبية تجارية بحتة . أما المناطق الغنية وخاصة منطقة الكاريبى ، فقد أصبحت مناطق تنافس بين القوى الاحتكارية المعادية . وقد نجح البرتغاليون بصفة عامة فى تجنب الحرب ، فلم تكن لديهم أى مطامع سياسية فى أوروبا ، هذا بالإضافة إلى وجود أتفاق بينهم وبين الأسبان على العمل فى مناطق مخصصة لكل منهما . وفى عام ١٥٨٠ أتحد العرش الأسبانى والبرتغالى ونتج عن ذلك قوة بحرية متحدة واحدة رهيبة . وفى نهاية القرن ١٦ فقط بدأت الأمبراطورية الهولندية البحرية فى ارتقاء سلم التطور بعد حصولها على استقلالها من أسبانيا ، بينما كانت إنجلترا هى المنافس الرئيسى لأسبانيا فى هذه الفترة . وقد لخص سير « والتر رالى » الغرض الاستراتيجى لجميع أطراف التنافس فى مضمار البحرية قائلا : « من يسيطر على البحار سيسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم سيسيطر على ثروات العالم وبالتالى سيسيطر على العالم قاطبة » .

وفى الأعوام التالية لعام ١٥٤٠ طور الأسبان مناجم الفضة فى جنوب أمريكا ، وفى وقت قصير تضاعف عدد السبائك العابرة للأطلنطى . وأصبحت التجارة الأسبانية الرائجة

مغرية لكل من التجار المتطفلين وأيضاً لكثير من القراصنة المفوضين[1] . وفى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ أزداد بسرعه حجم النقل البحرى التجارى الأسبانى فى الباسفيك ، وبالرغم من أن إنجلترا كانت فى الجزء الأول من القرن متخلفة تجارياً ، ولم تلعب إلا دوراً بسيطاً فى الاستكشافات الأولى والتوسع التجارى ، إلا أن ماحدث من هبوط مفاجىء للأسعار فى سوق أوروبا الشمالية فى حوالى عام ١٥٥٠ ، أثار الإنجليز وحثهم على أستكشاف وأستغلال العالم الجديد .

وفى أول الأمر أهتموا بشمال الأطلنطى ولكن فى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ تواجدت المصالح البريطانية بقوة فى الكاريبى .

وقد سار تطور القوة البحرية البريطانية فى القرن ١٦ بطريقة عفوائية ، وكان أهم عامل مؤثر منذ التاريخ هو وجود بريطانيا على حافه الأطلنطى ، الأمر الذى جعل تفكيرها البحرى يتجه إلى الشراع وليس إلى المجداف . وأستخدمت السفن الشراعية فى القتال ونقل البضائع نظراً لقدرتها الأكبر على البقاء فى البحر وتحمل الأحوال الجوية . وجاء هنرى السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩) ليزيد من حجم السفن الشراعية إلى حوالى ١٠٠ طن كما وسع منطقة الشراع . وقد جعل بورتسموث القاعدة البحرية البريطانية وأنشأ فيها أول حوض جاف . وشجع هنرى السابع الملاحين ، وأيضاً كسياسة مرسومة شجع طبقة جديدة من الأثرياء ، الذين قامت مؤسساتهم ببناء القوة البحرية البريطانية فى الأعوام التالية .

ولكن ظلت السفن الإنجليزية التجارية الكبيرة المسلحة المعروفة باسم « القرقور » هى سفن القتال أيام حكم هنرى ، ولكنها لم تكن أكثر من نقطه قوية متحركة ، ولم تكن لديها خفة حركة كبيرة .

الغليون

لقد كانت أعظم خطوة فى تكوين القوة البحرية البريطانية تلك التى قام بها هنرى الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) ، فبعد أن حصل هنرى على بعض الأنواع الجديدة من المدافع وجد أنها أثقل من أن توضع فى المقصورات الضعيفة الرقيقة المعدة للمدفع فى سفن القرقور ،

---

(١) قرصان يفوض من قبل الحكومة لمهاجمة سفن الأعداء والإستيلاء عليها . « المعرب »

ولذا فقد ركبها على طول السطح وأيضاً فى مكان نقل الحمولة بعد شق فتحات خاصة فى الجزء الطافى من السفينة .

وبذلك أصبحت سفن هنرى الثامن هى أول سفن مسلحة بالمدافع على جانبيها .

وزود المدفع بعربة ذات عجل حتى يمكن إدارة المدافع إلى الداخل لأعادة التعمير ، وأيضاًلإمكان ارتداد المدفع فيما بين السنادات على السطح ، وأمكن بذلك التغلب على مشكلة نقص القوة الضاربة للسفينة الشراعية . كما أن هنرى الثامن جعل سفنه أكثر قدرة على المناورة بإزالة جميع مقصورات المدافع جاعلا جسم السفينة أنسيابياً ، وبذلك كان يمكن للسفينة الأبحار فى أتجاه معاكس للريح تقريباً . وذلك النوع الجديد من السفن المتطورة من حيث القدره الهجومية ومرونة المناورة كان يطلق عليها أسم « الغليون » .

وفى عام ١٥٥٠ كانت هناك غلايين ذات حمولة وصلت إلى ٦٠٠ طن ، وفى الأعوام التالية لعام ١٥٨٠ كانت هناك بعض الغلايين مثل « النصر » والتى وصلت حمولتها إلى أكثر من ١٠٠٠ طن .

ولقد كانت هذه سفن « هوكنز » و « دريك » وأستخدمت أيضاً سفن شراعية مسلحة صغيرة كانت تعرف باسم « البيناك » .

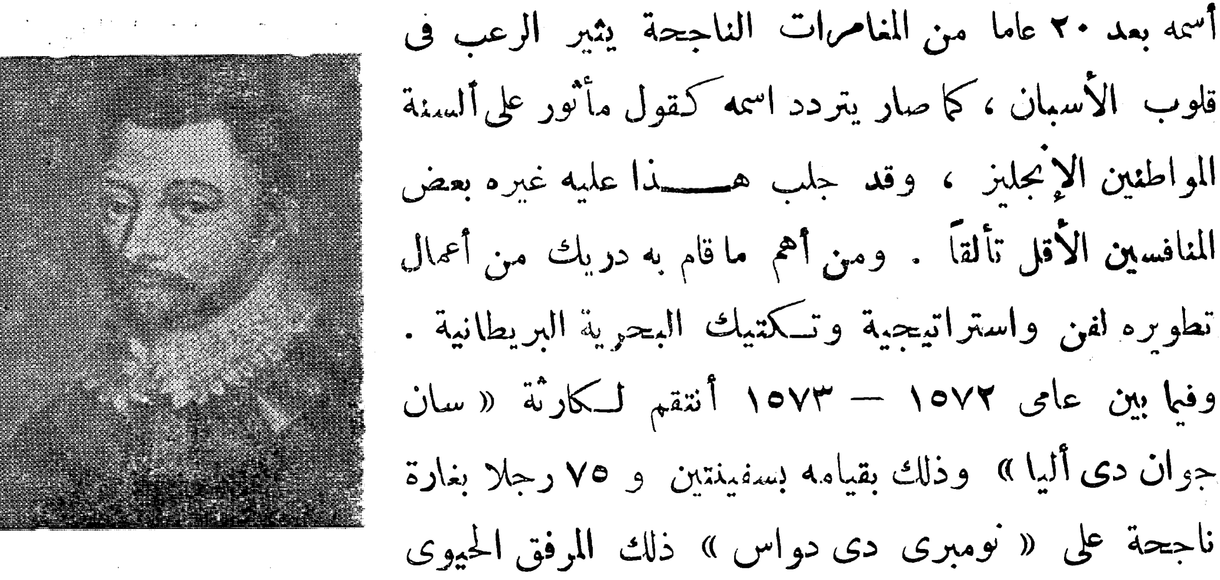
وقد أنشأ هنرى الثامن نظاما بيروقراطياً ليكمل به قائد البحرية ، وهو مجلس البحرية ومراقبة الحسابات . أما الأسبان فى الأعوام التى تلت عام ١٥٥٠ أدخل الأدميرال الأسبانى « الفارودى بازان » الغليون للخدمة فى الأسطول الأسبانى ولحماية النقل البحرى لبلاده عبر الأطلنطي.وفى الأعوام التالية لعام١٥٦٠ أنشأ الفارو أول نظام ثابت للقوافل البحرية المسلحة.

وحتى عام ١٥٦٩ ، ظلت العلاقات الانجلو — أسبانية ودية فى شىء من التجاوز ، وكان الأدميرال « سير جون هوكنز » من أبرز شخصيات هذه الفترة ، وأدخل بعض التحسينات على الغليون . وفى عامى ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ أنشأ عن طريق الاكتتاب والتبرع أساطيل جابت أرجاء الكاريبي بنجاح كبير . وعندئذ أعد هوكنز رحلة ثالثة قامت بتمويلها اليزابيث نفسها ، وفى تلك الرحلة بدأ ظهور « فرانسيس دريك » فى الكاريبي .

وفى عام ١٥٦٨ بينما كان الإنجليز يقومون بإصلاح سفنهم فى « سان جوان دى أليا » فى (خليج المكسيك) باغتتهم قوة أسبانية كبيرة بهجوم عنيف لم ينجو منهم سوى جزء صغير جداً أستطاع العودة إلى إنجلترا .

وكانت هذه نقطة التحول . . ومنذ عامى ١٥٦٩ — ١٥٨٠ بات واضحاً أن هناك عداءاً شبه رسمى بين إنجلترا وأسبانيا فى مياه الكاريبى . وأعلنت اليزابيث صراحة أنها تؤيد أعمال القراصنة الإنجليز طالما لم تؤدى أعمالهم إلى إثارة حرب علانية ، ومما زاد من حدة هذا العداء الأختلافات الدينية وتزايد معاملة الأسبان السيئة للأسرى .

وفى ذلك الوقت ، برز فرانسيس دريك كقائد بحرى بارز فى عصر الغليون . وأصبح أسمه بعد ٢٠ عاما من المغامرات الناجحة يثير الرعب فى قلوب الأسبان ، كما صار يتردد اسمه كقول مأثور على ألسنة المواطنين الإنجليز ، وقد جلب هـــذا عليه غيره بعض المنافسين الأقل تألقاً . ومن أهم ما قام به دريك من أعمال تطويره لفن واستراتيجية وتكتيك البحرية البريطانية . وفيما بين عامى ١٥٧٢ — ١٥٧٣ أنتقم لكارثة « سان جوان دى أليا » وذلك بقيامه بسفينتين و ٧٥ رجلا بغارة ناجحة على « نومبرى دى دواس » ذلك المرفق الحيوى للمواصلات البحرية الأسبانية . واستمر لعدة شهور بعدها فى نهب سواحل المستعمرات الأسبانية وتدمير سفنهم ، حتى أنه فى أحد المناطق نزل إلى البر ليتحالف مع المواطنين واستولى على قافلة أسبانية هامة محملة بالفضة . . وفيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٥٨٠ قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم ، واستمر طوافه على متن السفينة « جولدن هيند » بعد أن فقد سفينتين فى مضايق مجلان .



سير فرانسيس دريك

ثم أغار على الشاطىء الباسيفيكى لجنوب أمريكا حيث أكتشف أن الموانى بهذا الشاطىء غير مجهزة للوقوف فى وجه مدفعية سفينته ، وضمن باستيلائه على سفينة نقل الفضة الضخمة « كاكافيج » النجاح المالى للرحلة . كما كانت هناك ثروات أكبر كثيراً تتلمس

طريقه خلال جزر « مولو كاس » . وعندما عادت السفينة « جولدن هيند » إلى نهر التيمز ألقى دريك مراسيها خارج « دبتفورد » . وأعلنت اليزابيث عزمها على منح فرانسيس دريك رتبة « السير » على ظهر السفينة ، وتم ذلك فى ٤ أبريل عام ١٥٨١ . وجعلت اليزابيث دريك يركع أمامها ثم أعطت السيف لدبلوماسى فرنسى ليقوم بلمس أكتاف دريك ، ومن المحتمل أن يكون هذا العمل بغرض توجيه أهانة مباشرة لملك أسبانيا وأيضاً لتوريط الفرنسيين معها .

ولكن يبدو أن الستار قد بدأ يرخى سدوله معلناً على نهاية ذلك العهد من الرخاء والاطمئنان .

فقد كانت السفن والبحارة الإنجليزية فى وضع أفضل من أى وقت مضى ، ولكن الأسبان أيضاً أتخذوا الإجراءات التى تكفل لهم التعامل مع المغيرين الإنجليز ، فانشأت أسبانيا سفناً أكبر للنقل وجهزتها بالمدافع ، كما ألتزمت بنظام دقيق لإبحار القوافل . فكان يغادر أمريكا إلى أسبانيا أسطولان كبيران فى أوقات محددة من العام يصحبهما أسطول من الغلايين لحمايتهما .

وظل الأسبان لمدة طويلة يرفضوا التخلى عن السفن الشراعية المزودة بالمجاديف[1] .

وعلى كل إذا كانت قوة التحمل هى مفتاح الاستراتيجية ، نخفة الحركة ضرورية للتكتيك .

وفى الفترة التى شهدت المعركه البحرية العظمى « لبانتو » فى البحر المتوسط ضد الأتراك عام ١٥٧١ ، كان الأسطول الأسبانى يتكون كله من القواديس[2] ، وعلى أى حال فقد أعترف فى الأعوام التى تلت عام ١٧٥٠ بمزايا السفن الشراعية ، كما عملت التجارب لإنتاج سفينة سميت « الغلياس »[3] ، وكانت تطلق نيرانها من الجنب من فوق رؤوس المجدفين . ونتيجة لإتحاد البرتغال وأسبانيا عام ١٨٥٠ حصلت أسبانيا على عدد

---

(١) كان سبب ذلك أنهم من أهالى البحر المتوسط الذين اعتادوا على السفن ذات المجاديف .

(٢) سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف .

(٣) سفينة جامعة لخصائص الغليون والقوارس . « المعرب »

كبير من الغلايين . وأخيراً فى عام ١٥٨٧ عندما ثبت الفشل التام للغليـاس تحول الأسبان كلية من القوادس إلى الغليون.

احراق لحية ملك أسبانيا

وفى عام ١٥٨٠ كانت لا تزال اليزابيث غير راغبة فى التعجيل بقيام حرب علنية وقد ضيعت الفرصة لتوجيه ضربة كبيرة للقوة الأسبانية البحرية برفضها الإنضمام إلى فرنسا للقيام بغارة على جزر الأزور ، وبالرغم من ذلك فقد تدهورت العلاقات بسرعة ، وفى عام ١٥٨٥ أستولى فيليب ملك أسبانيا على معظم التجارة الإنجليزية فى أسبانيا ، كما خرجت الأخبار الصادقة ، بأنه يخطط لغزو انجلترا وذلك أعلنت الحرب رسمياً بين الطرفين .

كان الإنجليز يستخدمون الأساطيل فى العهود الماضية لمجرد نقل ومساعدة القوات فى قتالهـــا البرى ولـكن الآن أصبحت هناك أستراتيجية بحرية خاصة مع عدم إرتباطها بالقتال البرى ،فاستخدمت السفن البريطانية فى نظام وترتيب لقطع المواصلات البحريةالهامة للعدو ، وهى استراتيجية الأقتراب غير المباشر والتى تشبه ما اتبعته أسبرطة لهزيمة أثينا فى الحروب البيلوبونيز . وهاجمت السفن الإنجليزية خطوط المواصلات التى تربط الجيش الأسبانى فى الأراضى الواطئة وقاعدته فى أسبانيا .

وكانت الحملة العسكرية الإنجليزية التى أرسلت لمعاونة الهولنديين فى عام ١٥٨٥ جزءاً مـكملا لهذه الأستراتيجية . وفى نفس الوقت أستمرت أنجلترا فى أتباع سياسة دريك فى قطع الموارد الأمريـكية عن أسبانيا . وفى عام ١٥٨٥ ابحر دريك ومعه ٢٠ سفينةو ٢٣٠٠ رجل إلى الـكاريبى للاستيلاء على هافانا[١] ، وقد نجح فى إلحاق الدمار بالسفن والمنشآت الأسبانية هناك ، ولـكن لم يـكن معه قوات تـكفى لتحقيق النجاح كاملا .

وهـــذا يدل على تردد الملـكة لحـــرمانها دريك من الرجال التى تـكفى لنجاح مهمته با لـكامل .

وكان من الأفضل بدلا من أرسالقوات بريطانية كبيرة إلى الأراضى الواطئة ، التأ كد

---

(١) كانت هافانا المركز التجارى الأسبانى الرئيسى فى الـكاريبى . المعرب .

فقط أن الهولنديين يثبتوا القوات الأسبانية هناك ، بينما توجه إنجلترا مجهودها الرئيسى إلى الكاريبى . منذ عهد هنرى الثامن والبحرية البريطانية تتضاءل بطريقة ملحوظة ، وكانت أليزابيث تعانى من النقص المالى ، وفضلت أن ترسم سياستها البحرية على أساس مشاركة المؤسسات التجارية الخاصة ذات رأس مال مشترك لهذا الأمر ، وقد مولت كل رحلات دريك بهذه الطريقة ، وبذلك أعيد بناء الأسطول البريطانى .

وقد كانت إستراتيجية الأسبان فى هذا الحرب تدمير مخربى الأمبراطورية فى عقر دارهم وذلك بتوجيه ضربة ضد إنجلترا بغزوها بأسطول كبير بالتعاون مع جيش بارما المتمركز فى الأراضى الواطئة . ومنذ وقت طويل كانت تجرى الإستعدادات اللازمة لذلك حتى أنه فى عام ١٥٨٨ رفضت خطتان للغزو .

وإنتشرت الشائعات عن الإستعدادات الأسبانية فى كل أوروبا ، وفى عام ١٥٨٧ قام الإنجليز بمحاولة للقضاء على الغزو فى مهده ، فقد ترك دريك أسطولا صغيراً لمراقبة الساحل الفلمنكى وأبحر هو ومعه ٢٣ سفينة فى مهمة تعتبر من أبرع ما قام به على الإطلاق : — « إحراق لحيه ملك أسبانيا » . وكانت تعليمات دريك كما يلى : —

« تدمير تجمع أسطول ملك أسبانيا فى مراكزه المتعددة ، ومنعه من التزود بالمؤن وتتبع سفنه فى حالة إتجاهها نحو إنجلترا » .

وفى ميناء كاديز وجد حوالى ٨٠ سفينة من مختلف الأنواع يجرى تجهيزها ، ولكن لم توجد سوى ١٢ قادس فى حالة إستعداد للقتال ، واستغل دريك المفاجأة ودخل بسفنه إلى داخل الميناء ، وحاربت القواديس بشجاعة مثالية ولكن هزمتها نيران مدفعية الغلايين ، ثم دمر دريك كل ما أمكن العثور عليه فى الميناء ، وخسر الأسبان ٣٠ سفينة ، وأمضى الأسطول الإنجليزى وقتاً طويلا على الساحل الأسبانى ، ولكن الأمراض وقلة المون أجبرته على العودة لإنجلترا .

ولقد كانت حملة دريك عبارة عن المثل الأول للسياسة الإستراتيجية البحرية الرئيسية البريطانية المقبلة ، وهى مهاجمة العدو على نفس ساحله .

وأهم النتائج المباشره لهذه المعركة هو قرار الأسبان بالتخلى عن القواديس والإتجاه إلى

الغلايين واضطر الأسبان إلى البدأ من جديد فى التجهيز للأرمادا[1] .

وفى عام ١٥٨٨ ألح دريك على تكرار هذه الإستراتيجية الدفاعية الهجومية ولكن تردد الملكة ثم قيام ريح غير مواتية أبقت الأسطول الإنجليزى فى مياه بلاده .

كنوز الأسطول الاسبانى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وبدت الأرمادا الأسبانية التى أبحرت أخيراً للمانش فى مايو ١٥٨٨ كقوة رهيبة .

وقد أستطاع فيليب بقدرته الإدارية من بناء ٦٥ غليون بعد كارثة كاديز . ولم يكن مع الأرمادا سوى ٤ قوادس ومثلها من نوع الغلياس ، ولكن الحجم الكلى للأرمادا وصل إلى ١٣٠ سفينة عندما أشترك حشد من سفن البيناك الصغيرة وسفن النقل معها .

وقد جمعت هذه السفن من كل من أسبانيا والعالم الجديد . وكان إجمالى الأسطول البريطانى فى بلا يموث ١٩٧ سفينة بينها ٣٤ من سفن الملكة أما الباقى فكانت سفناً خاصة، وتضمن الأسطول حوالى ٢٥ غليوناً من الدرجة الأولى و٤٠ سفينة قتال أخرى جيدة جداً ، أما الباقى فلم يخض القتال . وبلغت حمولة أكبر السفن فى كلا الجانبين حوالى ١٠٠٠ طن ، وبالتالى فقد تساوت القوة القتالية للجانبين إذ بلغت لكل منهما من ٦٠ — ٧٠ غليوناً منهم ٣٠ سفينة بالغة القوة .

ومهما كان فقد كانت السفن الأسبانية أكثر إرتفاعاً عن سطح الماء ومقدمتها أكبر الأمر الذى جعلها أقل فى المناورة عن الغلايين الإنجليزية . ، كما كان هناك عامل غاية فى الأهمية وهو أن الإنجليز كان لديهم بحارة أكثر خبرة فى الملاحة بالشراع علاوة على تفوق نوعية القيادة فى الجانب الإنجليزى .

وكان القائدان العامان الشرفيان هما « دوق مدينا سيدونيا » «واللورد هوارد أفنجهام» وهما سيدان من النبلاء يمتازان بالكياسة والذوق ولكن تنقصهما الخبرة البحرية، أما القائدان الحقيقيان فكانا « دبيجو دى فالديز » الأسبانى وهو أحد رجال البحر ذو الخبرة العظيمة ولكن كان عاجزاً على السيطرة على مرؤوسية ، « ودريك » الإنجليزى والذى كان فى ريعانه .

(١) الأرمادا هى الأسطول الأسبانى الكبير . المعرب

ولقد كانت هناك فوارق ملحوظة فى تسليح كلا الأسطولين والتي ترجع إلى إختلاف المفهوم التكتيكى لكل منهما

وكان الهدف التكتيكى الأسبانىهو قصف العدو من مدىقصير حتىيتم تدمير أشرعته وصوارية وأيضاً إضعاف القدرة القتالية لرجاله ، ثم الإقتراب بعد ذلك من سفن العدو والأمساك بها ثم أعتلائها ، ولذلك فقد سلحوا كل غليون بحوالى ٤٠ مدافع ثقيل قصير المدى .

أما الهدف التكتيكى الإنجليزى فكان يتركز فىقصفجسم سفن العدوعلى أنيتم ذلك من أبعد مدى ممكن بهدف أغراقها ، ولذا سلح الإنجليز سفنهم بمدافع أخف ولكن ذات مدى أطول .

وهكذا تفوق الأسبان فى الوزن وتفوق الإنجليز فى المدى .

وفى ١٩ يوليه عام ١٥٨٨ ظهرت الأرمادا أمام مياة ليزارد ، ولبعض الوقت فقد لزم الأسطول الأنجليزى ميناء بلا يموث بسبب الرياح الجنوبية الغربية ، وقضى الضباط ذلك الوقت فى ممارسة لعبة البولنج[1] .

ولكن فى ٢٠ يوليه خرجت السفن الإنجليزية من الميناء فى إتجاه الأرمادا .

وصمم دريك على أنتزاع المبادأة من الأسبان بالوصول إلى مهب الريح بالنسبة للاسبان، وجاءت أولى لحظات تفوق الملاحة البريطانية عندما شق أسطولهم طريقه فى حركات متعرجة قصيرة فى مواجهة الأسطول الأسبانى ليعبر من جانب إلى آخر ويصبح فى مهب الريح بالنسبة للاسطول الأسبانى.وانتشرت الأرمادا على شكل هلال متجه غربا ، وهكذا أصبحت الأرمادا مجبرة على خوض القتالمن مؤخرتها حسب الوضع الملائم لسفن الإنجليز على طول المانش .

وقرر الإنجليز إستغلال خفة حركتهم المتفوقة ومدى نيرانهم الأطوال ، وساروا لمدة خمسة أيام فى أثر العدو ، ويوماً بعد يوم يتصيدون أقوى سفن المؤخرة الأسبانية .

---

(١) لعبة تدحرج الكبرة على مسطح لتصيبعدد من القوائم الخشبية وتسقطها.

وفى أول الأمر كان الإنجليز يقومون بالهجوم فى مجموعات صغيرة ولـكن الأسطول بعد ذلك نظم فى أربعة مجموعات ، وكان ذلك بمثابة البداية التـكتيكية المتماسكة للأسطول[1] . ومرة بعد الأخرى تفوقت السفن الإنجليزية فى الملاحة على سفن الأسبان .

ولـكن لم تؤدى تـكتيكاتهم المختارة أكبر مما أدت إليه تـكتيكات عدوهم .

وقد أظهرت التجربة العملية أن المدفع الإنجليزى كان أخف من أن يلحق دماراجسيما من المسافة التى اعتبرت مسافة الضرب المؤثر ، وعلى كل لم يجرؤ الأسطول الإنجليزى على الإقتراب من الأرمادا إقتراباً كافياً الافى ٢٩ يوليه بعد فراغ الذخيرة من الأسبان .

وفى النهاية أغرق الإنجليز ١١ سفينة فقط من الأسطول المهزوم ولم تـكن التكتيكات الأسبانية سوى فشلا ذريعاً ، لأنها كانت مجرد تطبيق لنظام سفن القوادس فى القرون الوسطى ، ولذلك لم تقترب أى سفينة أسبانية إقتراباً كبيراً من السفن الإنجليزية لتتعامل معها الند بالند كما كان مرسوماً فى الخطة .

وحصل الإنجليز على الأفضلية فى الصراع ، وقد حققوا أغراضهم فى كل مرة بتفوقهم فى فن الملاحة الذى دعمه عجز عدوهم وضعف كفاءته الواضحة .

فبعد أن انتزع دريـك المبادأة الأولى بقى محافظاً عليهـا بالأبحار فى مهب الريح بالنسبه للأسبان ، وقد عاونه على ذلك ثبات هبوب الريح البروتستنتينية .

وفى ٢٥ مايو أجبر دريك الأسبان على عبور السلونت والتوجه إلى المانش مباشرة وبالتالى منعهم من الدخول فى أى مرفأ آمن ، الأمر الذى كانوا يحتاجونه ، وساعد على ذلك عدم وجود توقيتاً زمنياً لتجمع جيش بارما على الساحل الفلمنـكى .

وفى ٢٩ يوليه جاءت اللحظة الحاسمة عندما تبعثرت الأرمادا بنيران مدافـع السفن الإنجليزية أمام مياة جرافلين قبيل الفجر ، وهنا تملك الذعر الأسبان . وفى النهاية استطاع الإنجليز التوغل بين سفن العدو نتيجة لعدم كفاءة الأسبان والتي تسببت فى

---

(١) لم يكن قد ظهر بعد مبدأ تقدم المجموعة فى خط واحد للأمام بحيث يمكن لـكل سفينة فيه أن تعطى جنبها بالتعاقب لتوجيه النيران المعرب

نفاذ الذخيرة . وعلى كل كانت أكبر الخسائر التى لحقت بالأرمادا من العواصف التى قابلتها أثناء فرارها حول شمال إسكتلندا .

وقد أنقذت هزيمة الأرمادا إنجلترا البروتستنتينية وعرشها الوطنى . ولكن تبددت كل نتائج هذا النصر خلال ١٥ سنة الباقية للحرب . وحلت المتاعب مرة أخرى بسبب تكرار رفض اليزابيث لإنتهاج إستراتيجية ذات عزم وتصميم .

وقد كتب رالى قائلا : ـــ « لقد عملت الملكة كل شىء بالنصف[١] ، أدت غزواتها الضعيفة السريعة أن تعلم الأسبان كيف يرون موطن ضعفهم وبالتالى كيف يدافعون عن أنفسهم » .

ولم تعد من سفن الأرمادا ١٣٠ سوى ٥٢ سفينة معطبة . ولكن فى وقت قصير وغريب إستطاع ثراء أسبانيا أن يبنى أسطو لا جديداً وعظيما من الغلايين .

وفى نفس الوقت وكما يحدث كثيراً بعد أى نصر باهر ، خفضت نفقات الأسطول البريطانى ، وأصبحت هناك حملات ضعيفة وغير ملائمة ترسل خارج مياه بريطانيا . فكان يجب ألا يحدث مطلقاً تلك العملية التى إشتبك فيها جرينفيل خارج جزر الأزور عام ١٥٩١ مع الأسطول الأسبانى ، ففى هذا الإشتباك كان الأسطول البريطانى يتكون من حوالى ١٦ سفينة بينما كان لأسطول الأسبانى مكونا من ١٤٠ سفينة. وإستطاع الكثير من السفن الإنجليزية الهرب ولكن السفينة « ريفنج » أسرت بعد أن ظلت تقاتل طوال اليوم وأغرقت إحدى سفن العدو .

وأخيراً إستطاع الأسبان الأمساك بها ثم الإستيلاء على هيكلها الضخم وقد أصبح غير صالح للعمل . وعندما حل السلام فى ١٦٠٣ كانت إنجلترا قد فقدت السيطرة على البحار التى حققها لها دريك .

ولم يحدث مرة أن حقق القراصنة الإنجليز حلمهم بالإستيلاء على كنوز الأسطول الأسبانى . وهكذا خسرت إنجلترا الحرب البرية والبحرية لوقت طويل . وبالتالى الحرب التجارية ضد أسبانيا .

---

(١) يقصد أنها كانت تعمل شىء بعد أن تهبطبه إلى النصف أولا . : المعرب :

ولم يكن ذلك يعنى كثيراً ، لأنه فى هذا الوقت كانت هناك عوامل أخرى كثيرة أدت إلى أفول نجم أسبانيا ، وكان السبب الرئيسى لذلك التضخم المالى الذى أوجده التدفق غير المنظم لسبائك الذهب والفضة من العالم الجديد .

وعلى أى حال ، فكان حكم مثل هذه الامبراطورية المترامية الأطراف والدفاع عنها ضد السلب والنهب من جميع الأمم مهمة مرهقة . وسرعان ما أدى ضعف الكفاءة السياسية إلى الحيرة والتردد بل إلى الإضطراب

وكانت هزيمة الأسبان على يد الهولنديين ضربة قاسية . ولكن مع ذلك ولوقت ليس بقصير ، وحتى بعد هزيمة الأرمادا ومعركة نيوبورت ، ظلت كفاءة الأسلحة الأسبانية فى البر والبحر ولوقت طويل تتمتع بسمعه كبيرة وإحترام جميع الدول .

وهكذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب ، أما الجزء الرابع فضمنه مونتجمرى الآتى : —



* الموت الأسود .
* الأنكشارية .
* مدفع أربان الوحشى .
* العثمانيون يحاصرون فينا .
* مؤذن وقائد أسطول .
* بيع القوة البشرية .
* الحظ يفضل الرجل الجرىء .
* قتل جوستاف .
* أغتيال والنشتين .
* نهاية حرب الثلاثين عاماً .
* عاهرة بابل الصغيرة .
* الملك الهازم لنفسه .
* حرب الأرث الأسبانى .
* نصف القمـــر .
* أختراق عالم الخوف .
* المبارزة بالمدفعية .
* لايعرفون سوى كيف يموتون .
* رسالة إلى الزوجة « سارا » .
* عملاق عصره .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الرابع .

عميـد

فتحى عبد الحميد النمر

مسابقة القراء

		عـــدد
الجائزة الأولى : —	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية : —	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة : —	٢ جنيـــه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لـكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالـكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الـكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الـكتاب على العنوان التالى :ـ

مـكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للـكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لـكتابه

الحرب عبر التـاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الثانى

حل المسابقة :-

ج ١ : ١ — سيبيو .

ج ٢ : ٣ — فوللر .

ج ٣ : ٢ — حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

ج ٤ : ٣ — سابور .

ج ٥ : ١ — أدريانوبل .

ج ٦ : ٢ — بليزارتوس .

ج ٧ : ٢ — خالد بن الوليد .

ج ٨ : ٣ — القائد العربى مسلمة .

ج ٩ : ٢ — وحدة تتكون من ٤٠٠ جندى .

ج ١٠ : ٢ — طرسوس وقبرص .

الجوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦٠٠٧

باسم : عبد الحميد رشاد سيد أحمد

العنوان : عمارة رقم ٦ شقة ٦٠٩ / مدينة نصر

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٦٠٥

باسم : محمد عبد المنعم أحمد جودة

العنوان : ٣٣٣ ش رمسيس العباسية طالب بالمعهد العالى للفنون الجميلة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٧١٥

باسم : حسام أحمد فؤاد كامل

العنوان : ٨٨ (أ) شارع العباسية شقة ٢

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة ١١١١

باســم : مصطفى محمد عبد العزيز حسن

العنوان : ٧ شارع الصباغ بعابدين / القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧١٥

باســم : محمد عبد الموجود محمد إسماعيل

العنوان : مساكن القللى الشعبية بلوك ٣ مدخل ٢ شقة ٢

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧٠٤

باســم : ملازم أول محسن محمود محمد أبوريا

العنوان : ١٠٨ ش ترعة الذمر — أول الهرم — الجيزة

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

المســـابقة نمرة ٠٠٤٢٢١

١ — لقد لقى كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما فى معركة

١ — الهمـــبر .

٢ — كوبرى ستامفورد .

٣ — هاستنجز .

٢ — نزل وليام الفاتح وقواته على الشاطىء الانجليزى فى يوم

١ — ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .

٢ — نهاية أغسطس ١٠٦٦ .

٣ — ١٣ أكتوبر ١٠٦٧ .

٣ — لقد استولى على قلعة «شاتو جيلارد» فى الفترة ١٢٠٣ - ١٢٠٤ بواسطة

١ — فيليب أغسطس .

٢ — ريتشارد الأول .

٣ — كروموبل .

٤ — فى ٣ يوليه عام ١١٨٧ قاد جاى دى لوزينان القوات الصليبية الى أعظم كارثة فى

١ — معركة بيت المقدس .

٢ — معركة حيفا .

٣ — معركة حطين .

٥ — الاحتفال الخاص لمنح الرجل لقب فارس يطلق عليه

١ — الجمبـــوز .

٢ — الهسبية .

٣ — الاحتضـان .

٦ — أول من سجل معادلة البارود فى العالم هو

١ — الراهب الإنجليزى روجر بيكون .

٢ — والتر دى مليويكى .

٣ — سيلدون .

٧ — اول مرة يطلق فيها مدفع فى القتال

١ — فى عام ١٣٢٤ عند « متز » .

٢ — فى عام ١٣٢٧ عند « بيرويك » .

٣ — فى عام ١٣٤٠ عند « كويسنوى » .

٨ — أول قائد قدر الامكانيات التكتيكية لحملة القرابين هو

١ — فرنسيس الأول .

٢ — جونزالفــــو .

٣ — مـكسيميليان .

٩ — مرجريت المجنونة هى

١ — أسم ملـكة إنجلترا .

٢ — أسم ملـكة هولندا .

٣ — أسم مــــدفع .

١٠ — قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم

١ — فى ٤ أبريل ١٥٨١ .

٢ — بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

٣ — بين عامى (١٥٠٩ و ١٥٤٧) .

الاسم ________________

العنوان ________________

____

____